الطبعة العربية الأصلية

باولو كويلو

الجاسوسة

رواية



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

پاولو كويلو

الجاسوسة

رواية

ترجمة: رنا الصيفي

تدقيق لغوي: روحي طعمة



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

نُشر في الأصل بالبرتغالية، بعنوان: A Espiã
نُشرت هذه الطبعة بالاتفاق مع سانت جوردي وشركاه، برشلونة،
إسبانيا بوكالتهم عن باولو كويلو
موقع باولو كويلو على الإنترنت: http://www.paulocoelho.com
Blog باولو كويلو: www.paulocoelhoblog.com

شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.
ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.
الجناح، شارع زاهية سلمان
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت، لبنان
تلفون: ٨٣٠٦٠٨ ١ ٩٦١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ١ ٩٦١+
email: tradebooks@all-prints.com
publishing@all-prints.com
website: www.all-prints.com

الطبعة الأولى ٢٠١٧

ISBN: 978-9953-88-947-4

تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الصور في الصفحات ١٥، ٢١ و١١٧: Friesmuseum - ص٥٣: Wikimedia - ص ١٤٥: BnF/Gallica
صورة الغلاف وص ١٤٩: Wikipedia - صورة الكاتب على الغلاف: Niels Akermann
الإخراج الفني: فدوى قطيش

مقدمة الكاتب لسلسلة رواياته الصادرة بالعربية

كان أحد كبار متصوّفي الإسلام، وسوف ندعوه هنا حسن، يُحتضَر، عندما سأله تلميذ من تلاميذه:

ـ من كان معلّمك أيها المعلَم؟

أجاب: «بل قل المئات من المعلمين. وإذا كان لي أن أسمّيهم جميعا، فسوف يستغرق ذلك شهوراً، وربما سنوات. وسوف ينتهي بي الأمر إلى نسيان بعضهم».

ـ «ولكن، ألم يكن لبعضهم تأثير بك أكبر من تأثير الآخرين؟»

استغرق حسن في التفكير دقيقة كاملة، ثم قال:

«كان هناك ثلاثة في الواقع، تعلَمت منهم أمورًا على جانب كبير من الأهمية:

«أولهم كان لصًا. فقد حدث يوماً أنني تُهت في الصحراء، ولم أتمكن من الوصول إلى البيت إلا في ساعة متأخرة جدًّا من الليل. وكنت قد أودعت جاري مفتاح البيت، ولم أملك الشجاعة لإيقاظه في تلك الساعة. وفي النهاية، صادفت رجلاً طلبت إليه المساعدة، ففتح لي قفل الباب في لمح البصر.

«أثار الأمر إعجابي الشديد، ورجوته أن يعلَمني كيف فعل ذلك. فأخبرني بأنه يعتاش من سرقة الناس. لكنني كنت شديد الامتنان له، فدعوته إلى المبيت في منزلي.

«مكث عندي شهرًا. كان يخرج كل ليلة، وهو يقول: سأذهب إلى العمل. أما أنت، فداوم على التأمّل، وأكثرْ من الصلاة. وكنت دائمًا أسأله عندما يعود، ما إذا كان قد غنم شيئًا. وكان جوابه يتّخذ، على الدوام، منوالاً واحدًا لا يتغيّر: لم أوفَق في اغتنام شيء هذا المساء. لكنني، إنْ شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد.

«كان رجلًا سعيدًا. لم أره يومًا يستسلم لليأس جرّاء عودته صفر اليدين. من بعدها، وخلال القسم الأكبر من حياتي، عندما كنت أستغرق في التأمل يومًا بعد يوم، من دون أن يحدث أي شيء، ومن دون أن أحقق اتّصالي بالله، كنت أستعيد كلمات ذلك اللص: لم أوفَق بشيء هذا المساء، لكنني، إذا شاء الله، سأعاود المحاولة في الغد. كان ذلك يمنحني القوة على المتابعة».

ـ «ومن كان المعلّم الثاني؟»

ـ «كان كلبًا. فقد حدث أن كنت متوجّهًا إلى النهر لأشرب قليلا من الماء، عندما ظهر هذا الكلب. كان عطشًا أيضًا. لكنه، عندما اقترب من حافة النهر، شاهد كلباً آخر فيه. ولم يكن هذا غير انعكاس لصورته في الماء.

«دبَ الفزع في الكلب، فتراجع إلى الوراء وراح ينبح. بذل ما بوسعه ليُبعد الكلب الآخر، ولكن شيئًا من هذا لم يحدث بالطبع. وفي النهاية، قرّر الكلب، وقد غلبه الظمأ الشديد، أن يواجه الوضع، فألقى بنفسه في النهر. وكان أن اختفت الصورة هذه المرة».

توقَف حسن قليلاً، ثم تابع:

ـ «أخيرًا، كان معلّمي الثالث ولدًا. فقد حدث أن رأيته يسير باتجاه الجامع، حاملاً شمعة بيده، فبادرته بالسؤال: هل أضأت هذه الشمعة بنفسك؟ فردّ علي الصبي بالإيجاب. ولما كان يقلقني أن يلعب الأولاد بالنار، تابعت بإلحاح: اسمعْ يا صبيّ: في لحظة من اللحظات كانت هذه الشمعة مطفأة. أتستطيع أن تخبرني من أين جاءت النار التي تشعلها؟

«ضحك الصبي، وأطفأ الشمعة، ثم ردّ يسألني: وأنت يا سيدي، أتستطيع ان تخبرني إلى أين ذهبت النار التي كانت مشتعلة هنا؟

«أدركت حينها كم كنت غبيًّا. من ذا الذي يُشعل نار الحكمة؟ وإلى اين تذهب؟ أدركت أن الإنسان، على مثال تلك الشمعة، يحمل في قلبه النار المقدّسة للحظات معيّنة، ولكنه لا يعرف إطلاقاً أين أُشعلت. وبدأت، منذ ذلك الحين، أسرّ بمشاعري وأفكاري لكلّ ما يحيط بي: للسُحب والأشجار والأنهار والغابات، للرجال والنساء. كان لي، طوال حياتي، الآلاف من المعلمين. وبتّ أثق بأن النار سوف تتوهّج عندما أحتاج إليها. كنت تلميذ الحياة، ولا أزال. لقد استقيت المعرفة وتعلمت من أشياء أكثر بساطة، من اشياء غير متوقّعة، مثل الحكايات التي يرويها الآباء والأمهات لأولادهم».

تبيّن لنا هذه القصة الجميلة المقتبسة من موروث التصوّف في الإسلام، ان احد أقدم الطرائق التقليدية، التي اعتمدها الإنسان لنقل معرفة جيله، كانت القصص والروايات. وفي ما يتعلق بي، كانت الثقافة العربية إلى جانبي خلال معظم أيام حياتي، تبيّن لي أمورًا لم يستطع العالم، الذي اعيش فيه، أن يفقه معناها. واليوم، أستطيع للمرة الأولى، أن أردّ على المكرمة بمثلها، وأنا أرقب كتبي تنشرها «شركة المطبوعات للتوزيع

والنشر ـ لبنان»، في المنطقة نفسها التي كثيرًا ما أثارت مخيّلتي. وإنّني مُمتنّ للناشر السيد تحسين الخياط لما أبداه من حماس لجعل أعمالي في متناول قرّاء العربية، من خلال ترجمتها، ترجمة اتّسمت بالجديّة، بعد حصوله مني، وفقًا للأصول المعتمدة، على حقوق النشر.

وأودّ أخيراً، أن أتوجه بالشكر إلى الوكيلة ـ المشاركة والصديقة، سوزان ناصيف، التي جعلت بحماسها، هذا الحلم ممكنًا، ذلك أنني ما كنت، من دونها، لأستطيع إشراك هؤلاء الناس، الذين أحمل لهم الإعجاب الشديد، بمكنونات قلبي.

پاولو كويلو

يا مريمُ،

البريئةُ من الخطيئة الأصليّة،

صلّي لأجلنا، نحن الملتجئين إليكِ.

آمين.

«فبينما أنتَ ذاهِبٌ مَعَ خَصمِكَ إلَى الحاكِم، ابذُلْ ما في وُسعِكَ لِتَسوِّيَ خلافكَ مَعَهُ عَلَى الطّريق. وَإلاَّ فَإنَّهُ قَدْ يَجُرُّك إلى القاضِي، وَيُسَلِّمُكَ القاضي إلَى الضّابِط، وَيَزُجُّ بِكَ الضّابطُ في السّجن.

أقُولُ لَكَ إنَّكَ لَنْ تَخرُجَ مِنْ هُناكَ إلَى أنْ تَسُدَّ آخِرَ فِلسٍ عَلَيكَ».

إنجيل لوقا ١٢: ٥٨، ٥٩



مُستنِدة إلى أحداث حقيقيّة

استهلال



باريس، ١٥ أكتوبر ١٩١٧ -
انطون فيشرمان وهنري ويلز،
خدمة الأنباء الدوليّة.

قبيل حلول الساعة الخامسة فجرًا، صعدتْ فرقةٌ من ثمانية عشر رجلًا، معظمهم ضبّاط في الجيش الفرنسي، إلى الطابق الثاني في سجن سان لازار، سجن النساء في باريس. أرشدهم آمرُ السِجنِ وفي يده مشعل لإضاءة المصابيح. توقّفوا أمام الزنزانة ١٢.

كانت مسؤولية الاهتمام بالسجن موكَلة إلى راهبات. فتحت الأخت ليونيد الباب، وطلبت إلى الجميع الانتظار خارج الزنزانة ودخَلت. حكّت عود ثقابٍ على الحائط، وأضاءت المصباح في الداخل. ثمّ نادت على إحدى أخواتها لإعانتها.

بعطفٍ وعناية فائقة، لفّت الأخت ليونيد ذراعها حول الجسد النائم. غالبت المرأةُ الصحو، وكأن الأمر لا يعنيها. وعندما استيقظتْ أخيرا، بدت، بحسب قول الراهبتَين، وكأنّها تستفيق من سُباتٍ هانىء. ولم يتعكّر صفوها حين أُبلغت أن طلب الاسترحام الذي كانت قد قدّمته منذ أيام إلى رئيس الجمهورية قد رفض. استحال التكهُّن بشعورها، أهو الأسى أم الارتياح لوصول كلّ شيء إلى ختام؟

عند إشارة الأخت ليونيد، دخل الأب أربو الزنزانة يرافقه النقيب

بوشاردون ومحاميها، الأستاذ كلونيه. سلّمت السجينة إلى محاميها الرسالة الطويلة التي صرفت الأسبوع الفائت تكتبها، ومظروفين ورقيين فيهما قُصاصات صحافيّة.

لبست جوربًا أسود اللون، ما بدا غريبًا في ظروفٍ مماثلة. وانتعلت حذاءها ذا الكعب العالي المزيّن بأربطة حريريّة مخرّمة. وفيما كانت تنهض من سريرها، أهوت بيدها على علّاقة في إحدى زوايا زنزانتها انسدل منها معطف من الفرو لامس الأرض علا كُمّيه وياقته فرو حيوان آخر، يرجّح أنه ثعلب. ارتدته بحركة انزلاقية رشيقة فوق الكيمونو الحريري الثقيل الذي ارتدته للنوم.

كان شعرها الأسود أشعث. مشّطته بعناية ثمّ شدّته إلى مؤخّر عنقها. اعتمرت قبّعة من الجوخ، وأوثقتها برباط حريري تحت ذقنها لئلا تطير مع الريح وهي تقف في الميدان المفتوح الذي كانت تُقتاد إليه.

انحنت ببطءٍ لالتقاط قفّاز جلدي أسود. ثمّ التفتت بلا مبالاة إلى الآتين، وقالت بصوتٍ هادئ:

«أنا جاهزة».

غادر الجميع زنزانة سجن سان لازار، وتوجّهوا إلى السيّارة التي كانت في انتظارهم، ومحرّكها لا يزال دائرًا، كي تقلّهم إلى حيث فرقة الرماية.

عبرت السيّارة بسرعة، شوارع المدينة الغافية، متوجّهة إلى ثكنات كازيرن دو ڤانسين، حيث انتصب يومًا حصنٌ دمّره الألمان عام ١٨٧٠.

بعد ثلث ساعة، توقّفت السيّارة، وترجّلت منها الفرقة. كانت ماتا هاري آخر من خرج.

كان الجنود قد اصطفّوا لتنفيذ الإعدام، وهم فرقة رماية مؤلفة من اثني عشر زواويًّا. وقف عند مؤخّر المجموعة ضابط يمتشق سيفه.

حادَث الأب أربو المرأة المحكومة، وإلى جانبه راهبتان، حتى دنا منهم ملازمٌ فرنسي ومدّ بقطعة نسيجٍ أبيض إلى إحدى الراهبتين قائلًا:

«اعصبي عينيها من فضلك».

سألت ماتا هاري وبصرها على النسيج: «أعليّ وضعها؟».

نَظَرَ الأستاذ كلونيه إلى الملازم نظرة استفهام.

أجاب الملازم: «هي ليست إجباريّة، إذا كانت السيدة تُفضّل ألاّ تضعها».

لم تُقيَّد يدا ماتا هاري ولم تُعصب عيناها؛ وقفت وقد شَخَصَت ببصرها إلى مُعدميها فيما تنحّى الكاهن والراهبتان والمحامي جانبًا.

كان قائد فرقة الرماية يراقب رجاله بانتباه لئلا يُقدِموا على تفحّص بندقياتهم. فمن المعتاد أن توضع دومًا خرطوشة فارغة في بندقيّة من البنادق لكي يتسنّى لكلّ رامٍ الادعاء بأنّه لم يكن هو من أطلق الرصاصة القاضية. وبدا على القائد الآن وكأنّه قد أخذ يسترخي. فقريبا سينتهي كلّ شيء.

«تأهّب!».

اعتَدَلَ الرجال الاثنا عشر، ورفعوا بندقياتهم إلى أكتافهم.

لم تُحرّك ماتا هاري ساكنًا.

انتقل الضابط إلى بقعة على مرأى من الجنود أجمعين، ورفع سيفه.

«سدّد!».

ظلّت المرأة أمامهم باردة لا تبدي أيّ خوف.

انخفض سيف الضابط شاقًّا الفضاء بحركة مقوّسة.

«ارم!».

وإذا بالشمس، التي بزغت في الأفق الآن، تُنير اللظى ونفث الدخان المنبعث من كلّ من البندقيات، فيما تردّد صوت الرشقات مدوّيًا. وعلى الفور، وفي حركة إيقاعيّة، نكّس الجنود بندقياتهم.

بقيت ماتا هاري منتصبة لهُنيهة. هي لم تمت الميتة التي تراها في الأفلام بعد إرداء الناس. هي لم تهو إلى أمام أو خلف، ولم ترم ذراعيها في الهواء، أو تحدّ جنبيها بهما. بدت وكأنها تنهار، مرفوعة الهامة أبدًا، وعيناها لا تزالان مفتوحتين. عندها، أُغمي على أحد الجنود.

الْتوتْ ركبتاها، وهوى جسدها يُمنةً، وتصالبت ساقاها تحت معطف الفرو. هناك رقدت جمادًا، وجهها يواجه السموات.

سحب ضابط ثالث مسدّسه من قِرابِ حَزَمَهُ على صدرِه، وتوجّهَ برفقةِ ملازمٍ نحو الجسدِ الهامد.

انحنى فوقه، صوّب فوّهة المسدّس على صدغ الجاسوسة وقد حرص ألاّ يلامس بشرتها، وضغط على الزناد. انطلقت الرصاصة ممزّقةً دماغها. استدار نحو كلّ من حضر، وقال بصوت رزين:

«ماتا هاري ماتت».

الجزء الأول



عزيزي الأستاذ كلونيه،

لا أعلم ما الذي سيحدث في نهاية هذا الأسبوع. لطالما كنتُ امرأةً متفائلة، غير أنّ الزمن أمرّني وأوحدني وآساني.

إذا بدت الأمور كما آمل، فلن تتلقّى هذا الرسالة أبدًا. سأكونُ قد أُعفيت. فأنا في النهاية، صرفتُ حياتي أُنمّي صداقاتٍ مع أشخاص نافذين. لكنّني سأحتفظ بها لكي تقرأها ابنتي الوحيدة يومًا ما، كي تكتشف من كانت والدتها.

لكن، إذا لم أكن على صواب، فسوف يكون أملي ضئيلاً بأنّ تُحفَظ هذه الصفحات التي استنفدت الأسبوع الأخير من حياتي على الأرض. لطالما كنتُ امرأة واقعيّة، وأعلمُ أنّ المحامي، متى حُلّت قضيّته الراهنة، سوف ينتقل إلى سواها، من دون الالتفات ولو التفاتة إلى الوراء.

لي أن أتصوّر ما سيحدث بعدها. ستصبح رجلاً شديد الانشغال بعد أنْ بتَّ مُضغةً في الأفواه لدفاعك عن مجرمةِ حرب. سيقرعُ كثيرٌ من الناس بابك، يتوسّلون مساعدتك؛ فأنتَ، وإن غُلِبت، فقد استقطبت شهرة هائلة. ستلتقي صحافيين مهتمّين بسماع روايتك أنتَ للأحداث، سوف تتناول العشاء في أفخم مطاعم المدينة، وسينظر إليك زملاؤك باحترام وحسد. وستعلم أنّ ما من دليل حسّي ضدّي، بل مجرّد وثائق تمّ التلاعب بها. لكنّك لن تعترف على الملأ يومًا أنّك سمحتَ بموتِ امرأة بريئة.

بريئة؟ لعلّها الكلمة غير المناسبة. لم أكن يومًا بريئة، ليس منذ أن

وطئتُ هذه المدينة التي أهيم في حبّها. خِلتُ أن بمقدوري التلاعب بمن أرادوا نيلَ أسرار الدُوَل. خِلتُ أنّ الألمان والفرنسيين والإنكليز والأسبان لن يتمكّنوا أبدًا من مقاومتي - مع ذلك، كُنت أنا المُتلاعب بها في النهاية. نجوتُ من الجرائم التي اقترفتُها فعلاً، وكان أعظمها أنّني امرأة متحرّرة ومستقلّة في عالمٍ يحكُمه الرجال. أُدِنتُ بالجاسوسيّة رغمَ أنّ ثرثراتِ صالونات المجتمع المخملي كانت الأمر الحسّي الوحيد الذي قايضته.

نعم، حوّلتُ هذه الثرثرات إلى «أسرار»، لأنّني صبوتُ إلى المال والنفوذ. غير أنّ كلّ من يتّهمونني الآن يعرفون أنّني لم أُفصح قط عن أيّ جديد.

من العار ألّا يعلم أحد بذلك. وسيكون مصير هذين المظروفين حتمًا خزانة ملفّات مُغبرة، تحفل بوثائق لدعاوى أخرى. وعلى الأرجح أنّهما لن يغادراها إلا حين يقرِّر خَلَفُك أو خلف خلفك فسح المجال للتخلّص من القضايا القديمة.

عند ذاك، سيكون اسمي قد بات طيّ النسيان منذ زمنٍ بعيد. لكنّني لا أكتب لكي أُذكَر. أنا أحاول فهم الأمور بنفسي. لِمَ؟ كيف لإمرأة، حصلت على كلّ ما أرادت لسنوات عدّة، أن يُحكم عليها بالإعدام لأمر لا يستحقّ؟

في هذه اللحظة، أستحضرُ حياتي الماضية، وأُدركُ أنّ الذاكرةَ نهرٌ، نهرٌ يجري إلى الوراء على الدوام.

الذكرياتُ ملأى بالنزوات، حيث لا تزال صُوَر ما اختبرناه قادرة على خنقنا بمجرّد تفصيلٍ صغير، بمجرّد صوتٍ ضعيف. تنسلُّ إلى زنزانتي رائحةُ الخُبز يُخبَز، وتُذكّرني بالأيام التي دخلتُ فيها المقاهي حرّة. يُمزّقني هذا أكثر من خوفي من الموت، ومن عزلة فيها أجد الآن ذاتي.

الذكرياتُ تترافق مع شيطان اسمه الكآبة؛ ويا له من شيطان ضارٍ لا يسعني الإفلات منه. سماع سجينة تُغنّي، تلقّي حفنة من الرسائل من معجبين لم يُحضِروا لي يومًا الورد وزهر الياسمين كسواهم، تخيُّل مشهدٍ في مدينة ما، أمورٌ لم أقدّرها في حينه. وهي، الآن، كلّ ما بقي لي من هذا البلد الذي زرته أو ذاك.

الذكرياتُ تربح دومًا، ويُرافقها شياطين أهول من الكآبة: إنّها شياطين الندم؛ رفيقي الوحيد في هذه الزنزانة، باستثناء الوقت الذي تقرّر فيه الأخوات أن يجئن إليّ ونتحادث. هنّ لا يتكلّمن عن الله، ولا يشجبنني لما يدعوه المجتمع «خطايا الجسد». في العموم، هنّ يقلن كلمة أو اثنتين، وتنبثق من فمي الذكريات، كما لو أنّني أريد العودة في الزمن، لأغوص في هذا النهر الذي يجري إلى الوراء.

سألتني إحداهنّ:

«لو منحك الله فرصة ثانية، هل كنتِ لتقدمي على غير ما أقدمتِ عليه؟».

قلتُ نعم، لكنّني لا أعرف تمامًا. كلّ ما أعرفه أنّ قلبي اليوم مدينة أشباح، يأهلها الشغف والحماسة والوحدة والخزي والعزّة والغدر والأسى. ولا يسعني أن أتحرّر من أيّ منها، حتّى عندما أُشفق على نفسي وأنتحب بصمت.

أنا امرأة وُلدت في الزمن الخطأ، ولا يُمكن فعل أيّ شيء لإصلاح ذلك. لا أدري إن كان المستقبل سيتذكّرني. لكنه إذا فعل، فآملُ ألاّ يراني أبدا ضحيّة، بل امرأة تقدّمت ببسالة، ودفعت بلا خوف الثمن الذي كان عليها دفعه.

في إحدى زياراتي لفيينا، التقيتُ رجلاً نبيلاً كان قد دوّى نجاحه بين رجال النمسا ونسائها على السواء. كانت شهرته «فرويد» - وأعجز عن تذكّر اسمه- أجلّه الناس لأنّه أحيا إمكان أن نكون جميعًا بــراء، أنّ أخطاءنا ترجع فعليًا إلى أبوينا.

أحاول الآن أن أرى خطأ أبويّ، لكن لا يسعني لوم أسرتي. فآدم وأنتييه زيلّيه قدّما إليّ كلّ ما يمكن شراؤه بالمال. كانا يملكان متجرًا للقبّعات. وقد وظّفا أموالهما في قطاع النفط قبل أن يدرك الناس أهمّيته، الأمر الذي أتاح لي ارتياد مدرسة خاصّة، وتعلّم الرقص، والفروسيّة. عندما شرع الناس في اتّهامي أنني «امرأة سهلة المنال»، ألّف أبي كتابًا دفاعًا عنّي- وهو أمرٌ لم يجدر به فعله. كنتُ هانئة البال تمامًا إزاء ما كنت أفعلُه، وما كان من كلماته سوى أنّها استقطبت مزيدًا من الانتباه إلى اتّهامات الدعارة والكذب التي استهدفتني.

نعم كنت عاهرة، إذا كان المقصد من هذه الكلمة شخصاً يقبل العطايا والمجوهرات مقابل العطف واللذّة. نعم، كنتُ كاذبة، لكن كنتُ مُكرَهة وما بيدي حيلة، إلى درجة أنّني غالبًا ما كنت أنسى ما أقوله، وأضطرّ إلى بذل طاقة ذهنيّة هائلة لكي أسترّ زلّاتي.

لا يسعني لوم أبويّ على أيّ شيء، باستثناء أنّهما أنجباني في البلدة الخطأ، في لوواردن، وهي مكانٌ لم يسمع به قط معظم أبناء بلدي الهولنديين، حيث العدم المطلق، وحيث الأيام تستنسخ نفسها. عرفتُ في ميعة صباي كم أنا جميلة، بالنظر إلى الطريقة التي قلّدتني بها صديقاتي.

عام ١٨٨٩، تعثّر حظّ أُسرتي. فقد أفلس آدم، ومرضت أنتييه، وتُوفيت بعد سنتين. لم يُريدا لي أن أُعاني معاناتهما، فأرسلاني إلى مدرسة في مدينة أخرى اسمها لايدن. وهدفا من ذلك أن أحظى بأرفع تعليم. هناك تدرّبتُ لأصبح معلّمة رياض أطفال، بانتظار زوج يتولّى أمري. يوم رحيلي، نادتني أمي وأعطتني صُرَة من البذار، وقالت:

«خذي هذه معك، مارغاريتا».

مارغاريتا - مارغاريتا زيليه - هذا اسمي، وقد كرهته. فكم من فتاةٍ وفتاةٍ حملت هذا الاسم تيّمناً باسم ممثّلة مشهورة ومحترمة.

سألتُها: «لم تصلح؟».

«إنّها بذار زهرة التوليب، رمز بلادنا. لكنها بالمقابل تُمثّلُ حقيقةً عليكِ معرفتها. تنبتُ البذارُ زهر التوليب على الدوام، حتّى وإن كنت، آنذاك، لا تستطيعين تمييزه من أزهار سواه. لن يتحوّل التوليب يومًا إلى ورد أو دوّار شمس مهما تاق إلى ذلك. فإن حاول إنكار وجوده، سيحيا مريرًا ويموت.

لذا، عليك أن تتعلّمي اتّباع قَدرك بفرح، مهما يكن. فحين ينمو الزهر، يتفاخر بجماله ويقدّره الكلّ. وبعد أن يموت، يخلّف بذارا لكي يتمكّن سواه من متابعة عمل الله».

وضعت صرّة البذار في كيسٍ صغير شاهدتها وهي تخيطه بتأنٍ على مدى أيام، رُغم مرضها.

«يعلّمنا الزهرُ أنّ لا شيء يدوم: لا جماله، ولا حتّى واقع أنّه سيذبل حتمًا، لأنّه سيظلّ يعطي بذارًا جديدة. تذكّري ذلك عندما تشعرين بالفرح أو بالألم أو بالأسى. كلّ شيء يمرّ، فيهرم، ثمّ يموت. فيولد من جديد».

كم من العواصف عليّ أن أقاسي قبل أن أفهم ذلك؟ في تلك اللحظة، بدت لي كلماتها خاوية؛ كنتُ أتوقُ إلى مغادرةِ تلك البلدةِ الخانقة، بنهاراتها ولياليها المتشابهة. ومع ذلك، فإنني اليوم، وأنا أخطُّ هذه الكلمات، أفهمُ أنّ أمّي كانت تتحدّث عن نفسها أيضًا.

«حتّى أفرع الشجر قادرة على النمو من بذارٍ منمنمةٍ كهذه. تذكّري ذلك وحاولي ألاّ تستعجلي الوقت».

قبّلتني قبلة وداعٍ، واصطحبني أبي إلى محطّة القطار. كلمات قليلة فحسب كانت تكسر الصمت ونحن في طريقنا إليها.

كلّ الرجال الذين عرفتهم، منحوني الفرح أو المجوهرات أو المكانة الاجتماعيّة، ولـم أندم يومًا على معرفتهم، باستثناء الرجل الأول، مدير المدرسة، الذي اغتصبني عندما كنتُ في السادسةَ عشرةَ.

استدعاني إلى مكتبه، فأقفل الباب، ثـمّ وضع يده بين فخذيّ، وأخذ يستمني. في البداية، حاولتُ الهرب قائلةً بلطفٍ إنّ الوقتَ والمكانَ غير مناسبين. لكنّه لـم يقل شيئًا. دفع جانبًا ببعض الأوراق عن طاولة المكتب، القاني فوقها على بطني، وولـجني دفعة واحدة، كما لو كان مرتاعًا من ان يدخل أحدهم الغرفة ويرانا.

كانت أمّي قد علّمتني في محادثةٍ طافحةٍ بالاستعارات أنّ «الحميميّة» مع رجل يجب أن تحدث فقط عند الحبّ، وعندما يكون ذاك الحبّ مدى الحياة. غادرتُ مكتبه مرتبكة ومرتعبة، عازمةً على عدم إخبار أحد بـما حدث، إلى أن ذكرتْ فتاة أخرى الأمر عندما كنّا نتحادث ضمن مجموعة. وبحسب ما أمكنني أن أخمّن، فقد تعرّضت اثنتان منهنّ لذلك، لكن إلى من نشتكي؟ ففي الأمر مجازفة أن نُصرَف من المدرسة، ونطرد إلى منازلنا، عاجزات عن تبرير السبب. كان تكتّمنا قسريًا. وكان عزائي معرفتي أنّني لم أكن الوحيدة. لاحقًا، عندما أصبحتُ مشهورة في فرنسا لأدائي عروضاً راقصة، أخبرتْ تلك الفتاتان الفتيات الأخريات. ولـم يمض وقت طويل حتّى عرفت بلدة لايدن كلّها بـما جرى. كان المدير قد تقاعد ولـم يجرؤ أحد على مواجهته. بل فعلوا العكس! حتى أنّ بعضهم حسده لأنّه كان عاشق معبودة الجماهير العظيمة في زمانها.

بداعي تلك التجربة، رُحتُ أربط الجنس بأمر آلـيّ، أمر لا يقرب الحبّ ولو قليلاً.

غير أنّ لايدن كانت أسوأ من لوواردن؛ شُيِّدت فيها المدرسة الشهيرة لتدريب معلّمات لرياض الأطفال، وبها غابة تُفضي إلى طريق، ومجموعة من الناس كان شغلهم الشاغل التدخّل بأمور الغير. ذات يوم، ومن باب الضجر، رُحتُ أقرأُ الإعلانات المبوّبة في صحيفة من بلدة مجاورة. وفيها جاء: رودولف ماكلاود، ضابط في الجيش الهولندي، اسكتلندي النسَب، يقيم حاليًّا في إندونيسيا، يبحث عن عروس شابّة للزواج والعيش خارج البلاد.

هاك خلاصي! ضابط. إندونيسيا. بحارٌ غريبة وعوالمُ عجيبة. طفح الكيل بهولندا المحافِظة اللاهوتيّة المُصلِحة المشحونة بالأحكام المسبَقة وبالملل. رددتُ على الإعلان، وأرفقت به أفضل صُوري وأكثرها إثارة. لم أعرف أنّ أحد أصدقاء النقيب قد وضع الإعلان مزحة. كانت رسالتي الرسالة الأخيرة التي تصله من ست عشرة رسالة تلقّاها.

جاء للقائي وكأنّه مُقبل على حرب بزيّ عسكري كامل، وسيف مُعلّق بجنبه الأيسر، وشاربين طويلين غطّاهما المرهم سترًا إلى حدٍّ ما بشاعته وافتقاره إلى آداب السلوك.

في لقائنا الأول، تحادثنا قليلا في أمور تافهة. صلّيتُ أن يرجع، واستُجيبت صلواتي؛ رجع بعد أسبوع، تشفّيًا من حسد صديقاتي وقُنوط مدير المدرسة الذي على الأرجح كان لا يزال يحلم بيوم آخر كذاك اليوم. لاحظتُ أنّ رائحة الكحول تفوح من رودولف، لكنّني لم أقف كثيرًا عند الأمر. ربما كان متوترا في حضرتي، أنا الشابة التي، بحسب كلّ صديقاتي، كانت أجمل الجميلات في صفّها.

في لقائنا الثالث والأخير، طلب إليّ الزواج. إندونيسيا. نقيب في الجيش. اسفار إلى أماكن قصيّة. وهل لامرأة شابة أن تطلب من الحياة ما يفوق ذلك؟

سألتني واحدة ممَن كانت لهنَ التجربة نفسها مع مدير المدرسة: اتتزوَجين رجلًا يكبرك بإحدى وعشرين سنة؟ أيعلم أنّك لست عذراء؟..

لم أُجِب. عُدت إلى المنزل، طلب يدي باحترام، وحصلت أُسرتي على قرض من الجيران لشراء جهاز العروس. تزوّجنا في ١١ يوليو ١٨٩٥، بعد ثلاثة اشهر من قراءتي الإعلان.

«التغيير» و«التغيير إلى الأفضل» أمران مختلفان جدًّا. لولا الرقص ولولا ضابط اسمه أندرياس، لكانت سنواتي في إندونيسيا كابوسًا لامتناهيًا. وكابوسي الأسوأ الآن هو عيش ذلك كلّه من جديد. زوجٌ باردٌ ومُحاطٌ على الدوام بنسوة أخريات، استحالة الهروب والعودة إلى الوطن، الوحدة التي ولّدتها ملازمتي للبيت مكرهةً على مدى أشهر لجهلي لغة البلاد، ناهيك بأنّني كنت على الدوام مراقبةً من الضبّاط الآخرين.

وما افتُرض أن يكون مصدر فرح لأي امرأة، أي إنجاب أطفال، تحوّل كابوسًا عليّ. بعد أن تعافيتُ من ألم الولادة، اكتست حياتي معنىً عندما لامستُ جسد طفلتي الصغير للمرة الأولى. حسّن رودولف تصرّفاته لبضعة أشهر، لكن سرعان ما رجع إلى أكثر ما راق له: خليلاته المحلّيات. فهو يرى أن ما من امرأة أوروبية تضاهي المرأة الآسيوية، التي رأت في الجنس رقصة. قالها لي من دون ولو ذرّة خزي، لأنّه كان مخمورًا على الأرجح، أو لأنّه تعمّد إهانتي. أفصح لي أندرياس لاحقًا أنه ورودولف كانا معًا ذات ليلة في إرساليّة تافهة، ذاهبيْن من اللاشيء إلى اللامكان، فقال له رودولف في لحظة من الصدق الثمِل:

«أخشى من مارغاريتا. ألاحظتَ كيف ينظرُ إليها الضبّاطُ الآخرون؟ قد تتركني في أي لحظة».

وكان هذا المنطق السقيم، الذي يحوّل رجالًا يخشون فقدان شخص ما وحوشًا، المنطق الذي جعل رودولف يمعن في السوء. نعَتني بالساقطة لأنّني لم أكن عذراء عندما التقيته. أراد أن يعرف تفاصيل كلّ رجل

تخيّل أنّني ضاجعته ذات ليل. أخبرته، باكيةً، قصة مدير المدرسة وما حدث في مكتبه. كان أحيانًا يضربني قائلاً إنّني أكذب، وأحيانًا كان يشتمني طالبًا مزيدًا من التفاصيل. وبما أنّني عِشتُ كابوسًا، أُكرهتُ على ابتكار تلك التفاصيل من دون أن أفهم تمامًا ما الذي دعاني إلى فعل ذلك.

وصل به الأمر إلى حدّ إرسال خادمة معي لشراء شيء كان أشبه بزيّ المدرسة الذي كنت أرتديه عندما التقاني. كان يأمرني بارتدائه متى استحوذ عليه شيطان ما غير معروف. كانت لذّته المفضّلة إعادة تمثيل مشهد الاغتصاب، فكان يُلقي بي على طاولة المكتب، ويلجني بعنفٍ وأنا أصرخ، لكي يسمعني كلّ الخدم ويحسبون أنَّ الأمر يروق لي.

أحيانًا، كان عليّ أن أُحسِنَ التصرّف كفتاةٍ صغيرة تتحمّل الاغتصاب؛ وأحيانًا أخرى، كان يجعلني أصرخ، وأطلب إليه أن يكون أعنف، وكأنّني ساقطة تستمتع بذلك.

تدريجًا، فقدتُ ذاتي. صرفتُ أيّامي أعتني بابنتي، أجرّ خُطاي في المنزل، وقد انطفأت تعابير وجهي. كنتُ أستر الخدوش والكدمات بالتبرّج المفرط، عالمةً بأنّني لم أكن أخدع أحدًا.

حملتُ ثانيّة. استمتعتُ ببضعة أيام من السعادة الغامرة، وأنا أعتني بابني. لكن سرعان ما سمّمته إحدى مربّياته التي لم تسنح لها الفرصة لتبرير أفعالها، فقد قتلها الخدم الآخرون في اليوم نفسه الذي وُجد فيه الطفل ميتًا. في النهاية، قال معظمهم إنّ الاقتصاص كان مُستحقًا لأنّ المربيّة كانت تتعرّض بشكل متواصل للضرب والاغتصاب، وأُثقل عليها بالعمل ساعاتٍ مُتواصلة.

الآن، لم يبقَ لي سوى ابنتي، ومنزل فارغ على الدوام، وزوج لم يكن يصطحبني إلى أي مكان، خوفًا من خيانتي له، ومدينة جميلة إلى درجة تُضيّق عليّ الخناق. هنا، كنتُ في الجنّة أحيا جحيمي الشخصي.

وذات يوم، تغيّر كلّ شيء. دعا قائد الكتيبة الضبّاط وزوجاتهم إلى عرضٍ محلّيّ راقص على شرف أحد حكّام الجزيرة. لم يكن في وسع رودولف رفض دعوة رئيسه. طلب إليّ شراء لباس مثير وباهظ. فهمتُ المغزى من كلمة «باهظ»، وهو الدلالة على مكانته أكثر ممّا هو هديّة ثمينة لي. لكن إذا كان، كما علمتُ لاحقًا، يخشاني كثيرًا، فلمَ أرادني أن أرتدي لباسًا مثيرًا؟

وصلنا إلى مكان العرض. رشقتني النسوة بنظرات حسد، والرجال بنظرات رغبة، ولاحظتُ أنّ ذلك قد استثار رودولف. بدا الأمر وكأنّ الأمسية ستؤول إلى سوء، بإكراهي على وصف ما كنتُ قد «تخيّلت فعله» مع كلٍّ من الضبّاط بينما يلجني رودولف ويضربني. كان عليّ، بكلّ الوسائل الممكنة، أن أحمي الشيء الوحيد الذي بقي لي، أن أحمي نفسي. ووجدتُ أنّ السبيل الأوحد إلى ذلك إجراء محادثة طويلة مع أندرياس، الذي راقبتني زوجته بذعر واندهاش. حرصتُ على إبقاء كأس زوجي مُترعة، آملةً أن يثمل.

أودّ أن أكفّ عن الكتابة حول جاوة في هذه اللحظة؛ لكن عندما يستحضر الماضي ذكرى قادرة على فتح الجراح القديمة، تظهر فجأة كلّ

الجراح الأخرى، فتدمي الروح إلى أن يركع المرء ويبكي. لكن لا يسعني أن اتوقّف من دون ذكر الأمور الثلاثة التي كان لها أن تُغيِّر حياتي: قراري، والرقص الذي شاهدناه، وأندرياس.

كان قراري أنني لم أعد قادرة أن أُكدِّس المشكلات، وأحيا أبعد من حدود العذاب التي يُمكن لإنسان أن يتحمّلها.

بينما كنتُ أفكّر في ذلك، بدأت المجموعة التي تتحضَر للرقص أمام الحاكم المحلّي بالصعود إلى المنصّة. وهي مجموعة مؤلّفة من تسعة أفراد. وبدل الإيقاعات المحمومة والفَرحة والتعبيريّة التي تعوّدتها في أثناء زياراتي القليلة إلى مسارح المدينة، بدا كلّ شيء وكأنّه يحدث ببطء. بدايةً، مللتُ إلى حدّ الموت، ليستحوذ عليّ بعدها نوعٌ من الانخطاف الديني، فيما أطلق الراقصون العنان لأنفسهم على وقع الموسيقا، واتّخذوا وضعيّات مستحيلة. في إحداها، أحنوا أجسامهم إلى أمام وخلف، مُتّخذين شكل الحرف S المؤلم جدًّا. وظلّوا على تلك الوضعيّة حتّى انقضّوا فجأةً من سكونهم وكأنّي بهم فهود متربّصة.

كانوا جميعًا مطليين بالأزرق، يرتدون السارنغ، اللباس المحلّي النموذجي، ويغطّي صدورهم نوع من الرباط الحريري الذي يبرز عضلات الرجال ويستر أثداء النساء. وَضَعَتِ النسوةُ على رؤوسهنّ تيجانا مثلّثة مصنوعة يدويًا من أحجار كريمة. وبين الحين والحين، كان الراقصون يستبدلون بلحظات من الرقّة حركات تُحاكي القتال، مُستعملين الأربطة الحريريّة سيوفًا وهمية.

ازددتُ انخطافًا على انخطاف. وللمرة الأولى، أدركتُ أن رودولف، وهولاند ابني المقتول، وكلّ هذا، كان جزءًا من عالم فني وانبثق من

جديد، كبذار أمي. رفعتُ ناظري إلى السماء، ورأيتُ النجوم وأوراق النخيل. كنت مهيّأة لترك نفسي تنجرف إلى بُعدٍ آخر ، إلى حيّز آخر عندما قاطعني صوت أندرياس:

«أتفهمين كلّ شيء؟»

خِلتُ ذلك، لأنّ قلبي لم يعد ينزف، وكان حينها يرى الجمال بشكله الأنقى. غير أنّ الرجال يحتاجون دومًا إلى تفسير أمر ما. قال لي إنّ هذا النوع من الباليه يعود إلى تقليد هندي قديم يُزاوج بين اليوغا والتأمّل. لم يفهم أنّ الرقص قصيدةٌ، وأنّ كلّ حركةٍ تمثّلُ كلمة.

وإذ قوطِعت ممارستي لليوغا ذهنيًّا وقوطِع تأمّلي العفوي، وجدتُ نفسي مُضطرّة إلى الانخراط في أيّ محادثة لئلا أبدو قليلة التهذيب.

كانت زوجة أندرياس تتابعه. وأندرياس يتابعني. ورودولف يتابعني ويتابع أندرياس وإحدى مدعوات الحاكم التي بادلته هذه اللباقة بابتسامة.

تحادثنا لبعض الوقت، على الرغم من النظرات النجسة التي رمقنا بها الجاويون، لأنّ أيًّا من الأجانب لم يكن يحترم طقسهم المقدّس. ولعله السبب في انتهاء العرض قبل وقته المتوقَّع، ومغادرة كلّ الراقصين في طابور، وأعينهم مسمّرة على أولاد بلدهم. لم ينظر أيٌّ منهم إلى زمرة البرابرة البيض مع زوجاتهم المتأنّقات، بضحكاتهم الصاخبة، ولحاهم وشواربهم المدهونة بالقازلين، وقلّة تهذيبهم.

بعد أن أترعتُ كأس رودولف مرّة أخرى، توجّه إلى المرأة الجاوية التي كانت قد ابتسمت له، ونظرتْ إليه بلا خوف أو مهابة. أتت زوجة أندرياس، وتأبّطت ذراعه. وابتسمت وكأنّها تقول «هو مُلكي»، وادّعت أنّها مأخوذة بالتعليق العقيم الذي أطلقه زوجها حول الرقص.

قالت، مقاطعةً الحديث فجأةً: «كنتُ مُخلصةً لك كلّ هذه السنوات. انت من يتحكّم بقلبي وأفعالي، والله شاهد على أنّني أتضرّع إليه كلّ ليلة كي تعود سالـمًا. ولو اضطررتُ أن أفديك بحياتي، لفعلتُ بلا خشية».

التفت أندرياس إليّ، واعتذر قائلاً إنّ عليه المغادرة، وإنّ الاحتفال قد أنهك الجميع. لكنَّ زوجته قالت إنّها لن تحرّك ساكنًا؛ قالتها بتسلّط ملحوظ لـم يجرؤ إزاءه زوجُها على أن يخطو خطوة أخرى.

«انتظرتُ بصبرٍ أن تفهم أنّك الأهمّ في حياتي. تَبعتُك إلى هذا المكان الذي، وإن بدا جميلاً، فإنه بلا شكٍّ كابوس حلّ على كلّ الزوجات، بـمن فيهنّ مارغاريتا».

عندها، التفتت إليّ وعيناها الزرقاوان النجلاوان تتوسّلان أن أوافقها، ان أتّبع ذاك التقليد القديم الذي تعتمده النسوة في العِداء والتواطؤ على الدوام. لكنّني لـم أتحلّ بالشجاعة لكي أومىء إيجابًا.

«ناضلتُ من أجل حبّنا بكلّ قوّتي، لكنّها اليوم خارتْ. والحجز الذي اثقل قلبي بات الآن بحجم صخرة تحرمه من الخفقان. وقلبي، بنفسه الأخير، قال لي إنّ ثـمّة عوالم أخرى غير هذا العالم، حيث ليس عليَ أن اتوسّل على الدوام رفقةَ رجل، ليملأ خُلوَ أيامي ولياليّ».

ثـمّة مَن خاطبني منذرًا بأنّ مأساة على وشك الوقوع. طلبتُ إليها ان تهدأ؛ كانت عزيزة على كلّ من في تلك المجموعة. وكان زوجها ضابطا قدوة. هزّت رأسها وابتسمت، كما لو أنّها سمعت ذلك مرارا. وتابعت:

«قد يظلُّ جسمي حيًا، غير أنّ روحي هالكة. فأنا أعجز عن مغادرة هذا المكان، وأعجز عن جعلك تفهم أنّني في حاجة إلى وجودك بقربي».

بدا انزعاج أندرياس واضحًا للعيان، لأنه ضابط في الجيش الهولندي، عليه صون سُمعته. استدرتُ وهممتُ بالابتعاد، لكنّها تركت ذراع زوجها وتشبّثت بذراعي.

«وحده الحبُ قادرٌ على منح المعنى لشيء يفتقر إليه منفردًا. يبدو أنّني لا أملك ذاك الحب. فما الذي يدعوني إذًا إلى مواصلة العيش؟».

كان وجهها مُجانبًا تمامًا لوجهي، حاولت عبثًا أن أشتمّ رائحة كحول في نَفَسِها. نظرتُ إلى عينيها، ولم أجد فيهما دمعًا. ربما جفّت مآقيها.

«أرجوكِ، أحتاجُ إلى بقائِكِ، مارغاريتا. أنتِ امرأةٌ صالحة، امرأة فقدت ولدًا. أعرف معنى ذلك، مع أنّني لم أحمل يومًا. لا أفعل ما أفعله من أجلي، بل من أجل كل أولئك النسوة الأسيرات داخل حريتهن المزعومة».

سحبتْ زوجة أندرياس مسدَّسًا صغيرًا من حقيبة يدها، صوّبته نحو قلبها وأطلقت النار قبل أن يتمكّن أيٌّ منّا من ردعها. ومع أنّ فستان السهرة الذي ارتدته قد امتصّ معظم الدويّ، فإن الناس قد التفتوا إلينا. في البداية، لا بُدّ أنّهم خالوا أنّني ارتكبتُ الجريمة، لأنّها كانت تلاصقني قُبيْل وقوعها. لكنّهم سرعان ما رأوا وجهي يُمتقَعُ رُعبًا، وأندرياس راكعًا، يُحاول إيقاف سيلان الدم الذي كان يسلب حياة زوجته. ماتت بين ذراعيه، ولم تعكس عيناها سوى السلام. دنا الجميع، بمن فيهم رودولف؛ همّت المرأة الجاويّة بالرحيل في الاتجاه المعاكس، خشية ما قد يحدث بوجود ثُلّة من المسلّحين والسكارى. وقبل أن يشرع الناس في السؤال عمّا حدث، سألتُ زوجي إن كان بإمكاننا المغادرة من فورنا؛ وافق من دون أن ينبس بكلمة.

عندما بلغنا المنزل، توجّهتُ مباشرة إلى غرفة النوم، ورُحتُ أوضّبُ ثيابي. هوى رودولف على الأريكة، ثملا تماما. في الصباح التالي، بعد أن

استفاق من نومه والتهمَ الفطور الذي قدّمه الخدم، توجّه إلى غرفتي، ورأى الحقائب. كانت المرّة الأولى التي يُفاتحني فيها بالموضوع.

«إلى أين تخالين نفسك ذاهبة؟».

«إلى هولندا، على متن السفينة التالية. أو إلى السموات، حالما تتسنّى لي الفرصة نفسها التي تسنّت لزوجة أندرياس. القرار قرارك».

كان الوحيد الذي تعوَّد أن يصدر الأوامر. لكن لا بُدّ من أنّ نظراتي كانت قد تغيّرت تمامًا. فإذا به، بعد التردّد للحظة، يغادر المنزل. عندما عاد تلك الليلة، قال إنّ علينا بالفعل الاستفادة من الإجازة المستحقّة له. بعد أسبوعين، انطلقنا على متن السفينة الأولى المتوجّهة إلى روتردام.

دمُ زوجة أندرياس عمّدني، وفي طقس معموديّتي، تحرّرتُ إلى الأبد، مع أنّ كلًّا منا لم تكن تعرف المدى الذي قد تبلغه هذه الحريّة.

أخذت الأخت لورانس جزءًا من وقتي الثمين الذي بقي لي، مع أنّ أملي لا يزال كبيرًا بأن يعفو الرئيس عنّي، لأن لي أصدقاء كُثُرًا من الوزراء. وقد أحضرت لي اليوم لائحة بمحتويات أمتعتي يوم توقيفي.

سألتني، بكلّ ما في الدنيا من رِفق، عمّا تفعله بكلّ تلك المحتويات إذا بدا أنّ السيناريو الأسوأ هو السيناريو الوحيد أمامي. طلبتُ إليها أن تدعني أختلي بنفسي، وقلت إنّني سأهتمّ بالأمر لاحقًا، لأنّني في تلك اللحظة لم أعد أملك وقتًا لأهدره. لكن إذا بدا فعلاً أنّ السيناريو الأسوأ هو السيناريو الوحيد أمامي، يُمكنها أن تتصرّف بها كما تشاء. في أيّ حال، سأدوّنها كلّها، فأنا على ثقة بأنّ كلّ شيء سيجري على ما يرام.

الحقيبة ١

ساعة من الذهب مزيّنة ببرنيق أزرق، مُشتراة من سويسرا، وصندوق دائري يحتوي على ستّ قبّعات، وثلاثة دبابيس من اللؤلؤ والذهب، وبعض الأرياش الطويلة، ووشاح، وشالين من الفرو، وثلاثة تنميقات لقبّعة، ودبّوس زينة على شكل إجّاصة، وفستان سهرة.

الحقيبة ٢

حذاء فروسية؛

فرشاة حصان؛

علبة طلاء أحذية؛

رقبتان لحذاء الفروسية؛

مهمازان؛

خمسة أزواج من الأحذية الجلديَة؛

ثلاثة قمصان بيض تتماشى مع ثياب الفروسيّة؛

منديل لست أدري المغزى من أن يشغل هذا الحيز بلا جدوى. ربّما استعملته لتلميع جزمتي،

رقبتان لحذاء الفروسية؛

ثلاثة أطقم من الصَدارات الخاصَة التي تُثبّت الثديين أثناء العَدْو.

ثمانية سراويل داخلية من الحرير واثنان من القطن؛

حزامان يلائمان ملابس الفروسيّة المختلفة؛

اربعة أزواج من القفّازات؛

مظلّة؛

ثلاثة أقنعة واقية لحماية العينين من التعرّض لضوء الشمس المباشر؛

ثلاثة أزواج من الجوارب الصوفية، مع أنّ أحدها قد بلي من الاستعمال؛

كيس خاص لتوضيب الفساتين؛

خمسة عشر منديلًا صحيًّا للدورة الشهريَة،

بلوزة من الصوف؛

زيّ فروسيّة كامل، مع سترة وسروال ملائمين له؛

علبة فيها مشابك للشعر؛

خصلة من وصلة شعر مستعار، بكبشة لتثبيتها في شعري الطبيعي؛

ثلاثة أطواق للرقبة من فرو الثعلب؛

علبتان من مسحوق الوجه.

الحقيبة ٣

ستة أزواج من أربطة الجوارب؛

عبوة من مرطِب البشرة؛

ثلاثة أزواج من الجزمات اللمّاعة الجلد العالية الكعب؛

مشدّان للخصر؛

أربعة وثلاثون فستانًا؛

كيس من القماش مصنوع باليد، يحتوي على بذار يبدو أنها من نبات مجهول الفصيلة؛

ثماني حمّالات صدر؛

وشاح؛

عشرة أزواج من السراويل الداخلية المريحة؛

ثلاث صدريَات؛

سترتان طويلتا الكمّ؛

ثلاثة أمشاط؛

ست عشرة بلوزة؛

فستان سهرة آخر؛

منشفة وصابونة معطَرة، فأنا لا أستعمل صابون الفنادق لأنّه قد ينقل الأمراض؛

عقد من اللؤلؤ؛

حقيبة يد بمرآة؛

مشط من العاج؛

علبتان لاحتواء مجوهراتي بعد نزعها قبل النوم؛

علبة من نحاس فيها بطاقات تعريفيّة باسم ڤاديم دو ماسلوف، النقيب في الفوج الإمبراطوري الروسي الخاص الأول؛

علبة من الخشب تحتوي على طقم من فناجين الشاي الخزفيّة قُدّمت إليَ خلال الرحلة؛

رداءان للنوم؛

مبرد للأظافر له مقبض مطعّم باللؤلؤ؛

علبتان من السجائر، واحدة من فضّة وواحدة من ذهب، أو مطليَة بالذهب، لست واثقة؛

ثماني شَبَكات للشعر توضع عند النوم؛

علب فيها عقود، وأقراط للأذن، وخاتم من الزمرّد، وخاتم آخر من الزمرد والألماس، وحلي أزياء أخرى زهيدة الثمن؛

كيس من الحرير فيه ٢١ وشاحًا، ومناديل؛

[illegible]

[illegible] للوجنتين من أفضل الماركات التي تنتجها فرنسا؛

[illegible]

[illegible] فيها عدّة صور لي؛

وكميّة كبيرة من التوافه التي أنوي التخلّص منها فور إطلاق سراحي من هنا، مثل رسائل من عشّاق مربوطة بأربطة حريريّة خاصة، تذاكر مستعملة من حفلات أوپرا استمتعت بحضورها، وأشياء مشابهة.

صادرَ فندق موريس في پاريس معظم هذه الأمتعة، لأنّهم ظنّوا، مخطئين طبعًا، أنّني لا أمتلك المال لتسديد أجرة إقامتي. كيف لهم أن يظنّوا ذلك؟ في النهاية، أقول إن پاريس لطالما كانت وُجهتي المفضّلة. لن أدعهم أبدًا يخالون أنّني منافقة.

لم أكن أنشد السعادة، كنتُ أطلب ألاّ أكون على قدر التعاسة والبؤس اللذَين شعرتُ بهما بعد عودتنا إلى روتردام. لو أنني تحلّيت بمزيد من الصبر، لربّما قدِمتُ إلى پاريس في ظروف مختلفة. لكن لم يعد بوسعي تحمّل الاتّهامات المضادّة التي أطلقتها زوجة والدي الجديدة. لم يعد بوسعي تحمّل زوجي، وابنة تبكي كلّ الوقت، والبلدة الصغيرة بناسها الريفيين المتحاملين عليّ، مع أنّني كنت حينها امرأة متزوّجة ومحترمة.

ذات يوم، أقلّني قطار إلى لاهاي. توجّهت إلى القنصليّة الفرنسيّة من دون علم أحد، وهو أمر يتطلّب حدسًا ومهارة هائلين. لم تكن طبول الحرب قرعت بعد، وكان دخول البلاد لا يزال متيسّرًا. لطالما بقيت هولندا على الحياد في النزاعات التي بطشت بأوروبا، وكنت واثقة بنفسي. اجتمعتُ بالقنصل. وبعد ساعتين قضيناهما في مقهى، حاول خلالهما إغوائي وادّعيتُ الوقوع في شركه، حصلتُ على تذكرةِ ذهاب إلى پاريس، ووعدته أن أنتظره هناك متى تمكّن من التفلّت والتوجّه إليها لبضعة أيّام.

قلت مُلمّحة: «أعرف كيف أسخى على من يساعدني». بلغه مقصدي، وسأل عمّا بإمكاني فعله.

«أنا راقصة كلاسيكيّة ترقص على الموسيقا الشرقيّة».

الموسيقا الشرقيّة؟ أثار ذلك فضوله أكثر. سألتهُ إن كان في وسعه أن يؤمّن لي عملاً. قال إنّ بإمكانه تعريفي برجلٍ نافذ جدًّا في المدينة يدعى موسيو غيميه، كان، فضلًا عن أنه جامع فنون عظيم، مولعًا بكلّ ما يصدّره الشرق. سألني: «متى تكونين جاهزة للرحيل؟».

فقلت: «هذا اليوم بالذات، إذا تمكّنتَ من تدبير مكانٍ أنزلُ فيه».

أدركَ أنّه كان يتعرّض للتلاعب. كنتُ مجرّد امرأةٍ أخرى من اللاتي يغامرن في الذهاب إلى مدينة الأحلام، ساعياتٍ خلف الرجال الأثرياء ويُسر العيش. أحسستُ أنّه بدأ يأخذ حذره. كان يُصغي إليّ. لكنّه كان، في الوقت عينه، يراقب كلّ حركة من حركاتي، كلّ كلمة، كلّ إيماءة. وخلافًا لما قد يظنّه بي، أنا التي كانت تسلك سلوك الحسناء اللعوب، رُحتُ أتصرّف أمامه كأكثر الأشخاص عفّة في العالم.

«يُمكنني أن أُري صديقك رقصة أو اثنتين من الرقص الجاوي الأصيل، إن شاء ذلك. وإذا لم يرق له ذلك، أركب القطار عائدة في اليوم نفسه».

«لكن مدام...»

«آنسة».

«طلبتِ تذكرة ذهاب فقط».

سحبتُ بعض المال من جيبي، وأريته أنّني أملكُ ما يكفي للعودة. كنتُ أملكُ أيضًا ما يكفي للذهاب، لكن أن تدع رجلا يساعد امرأة، يجعله دومًا رقيقًا. هذا حلم كلّ الرجال، كما قالت لي خليلات الضبّاط في جاوة.

استرخى، وسألني عن اسمي، لكي يتمكّن من كتابة رسالة إحالة إلى موسيو غيميه. لم يخطر لي ذلك من قبل! اسمي؟ سيُفضي اسمي الحقيقي إلى عائلتي. وآخر ما أرادته فرنسا هو خلق إشكالية مع أمّة مُحايدة بسبب امرأة كانت تستميت للفرار.

كرّر سؤاله، وفي يده قلمٌ وورقة: «ما اسمُكِ؟».

«ماتا هاري».

وها أنا أتعمّدُ من جديد بدم زوجة أندرياس.

لم أصدّق ناظري. ارتفعَ برجٌ حديديّ عملاق إلى السموات. ومع ذلك لم يتصدّر أيًّا من البطاقات البريديّة للمدينة. وعند كلّ من ضفّتي نهر السين، قامت مبانٍ متميّزة بتصاميم تُحاكي المباني في الصين، وإيطاليا، وسواهما من بلدان العالم الشهيرة. حاولتُ إيجاد هولندا، ولم أُفلِح. ما الذي يُمثّل بلادي؟ الطواحين القديمة؟ الأحذية الخشبيّة الثقيلة؟ لم يجد أيٌّ من ذلك مكانًا له بين هذه الأمور الحديثة. روائع لم أخلها موجودة أُعلن عنها على مُلصقات رُفعت على قواعد دائريّة من حديد.

«انظر! مصابيح تُضيء وتنطفىء من دون الحاجة إلى استعمال الوقود أو النار! فقط في قصر الكهرباء!».

«اصعد السلالم حتى من دون تحريك قدميك! ستنوب الدرجات بذلك عنك». جاءت هذه الجملة تحت رسم لهيكل بدا وكأنّه نفق مفتوح، على جانبيه درابزين.

«الفن الجديد: آخر صرعات الموضة».

لم يكن من علامة تعجّب في نهاية هذا الإعلان، بل صورة لزهريّة وبجعتين من الخزف. تحتها، جاء رسم لما بدا أنّه هيكل معدني يشبه البرج العملاق، مع الاسم الطنّان غران باليه.

سينيوراما، ماريوراما، پانوراما - كلّها كانت وعدًا بصور متحرّكة أمكنها أن تنقل الزائرين إلى أماكن لم يحلموا يومًا بالذهاب إليها. كلّما نظرت، زاد تيهي، واستفحل أسفي؛ ربما مددتُ رجليّ أبعد من بساطي.

غصّت المدينةُ بالناس المتنقّلين من ضفة إلى ضفة. تأنّقت النسوة تأنّقًا لم أعهدْهُ قط في حياتي. وبدا الرجال منشغلين بأمور مهمّة، لكن، كلّما استدرتُ، لاحظت عيونهم تلاحقني.

ومع أنّ اللغة الفرنسيّة كانت تُدرّس في المدرسة، فإن شعوري بالأمان قد تلاشى. بقاموسٍ في يدي، قاربتُ شابة لا بُدّ من أنها في مثل سنّي أو أصغر قليلاً وسألتها بمشقّة كبرى كيف أعثر على الفندق الذي حجز القنصل لي فيه. نظرتْ إلى أمتعتي وملابسي. ومع أنّني كنت أرتدي أبهى فساتيني التي جلبتها من جاوة، تابعتْ سيرها من دون أن تجيبني. من الواضح أنّ الأجانب لم يكن مرحّبًا بهم، أو أنّ الپاريسيين خالوا أنفسهم فوق كلّ شعوب الأرض.

كرّرتُ محاولتي مرّتين أو ثلاثًا، وكانت الإجابة هي نفسها في كلّ مرّة، إلى أن تعبتُ وجلستُ على مقعدٍ في جاردان دو تويلوري. كان هذا أحد الأحلام التي راودتني في صِغري؛ ومجرّد الوصول إلى هنا، كان انتصارًا أعظم ممّا تصوّرت.

هل يجدرُ بي العودة؟ ساءلت نفسي لبعض الوقت، لعلمي بصعوبة العثور على مبيت. ثمّ تدخّل القدَر: هبّت ريحٌ قويّة، وسقطت قبّعة بين ساقيّ تمامًا.

التقطتُها بتأنٍّ، ووقفتُ كي أناولها للرجل الذي كان يهرع إليّ.

قال: «أرى أنّ قبّعتي معك».

أجبت: «نعم، انجذبت قبّعتك إلى ساقيّ».

«ويُمكنني أن أدرك لماذا!» قالها من دون أن يموّه محاولته الواضحة في

إغوائي. خلافًا للكالفينيين في بلادي، ذاع صيت الفرنسيين أنهم متحرَرون تمامًا وبالمطلق.

مدّ يده لأخذ القبّعة، لكنّني وضعتها خلف ظهري مادّة له يدي الأخرى، وفيها عنوان الفندق. بعد قراءة المكتوب، سألني: ما هذا؟

«المكان الذي تسكنه صديقة لي. جئتُ لقضاء يومين معها».

لم يكن في وسعي القول إنّني في طريقي إلى تناول العشاء معها، لأنّه رأى حقيبتي إلى جانبي.

لم يقل شيئًا. تصوّرتُ أن المكان أوضع من أن يُنتقد، غير أنّ إجابته كانت مفاجأة لي:

«يقع رو دو ريفولي خلف هذا المقعد حيث تجلسين. يُمكنني أن أرافقك وأحمل عنك الحقيبة. وسوف نصادف في طريقنا إليه عددًا من الحانات، آملُ أن تشاركيني في احتساء مشروب كحولي باليانسون، مدام...».

«مادوموازيل ماتا هاري».

لم يكن لديّ ما أخسره. وسيكون أول أصدقائي في المدينة. مضينا نحو الفندق، وفي طريقنا، دخلنا مطعمًا يرتدي فيه النُدُل مآزر طويلة تلامس أقدامهم، تُظهرهم متأنّقين، وكأنّهم غادروا من فورهم حفلاً رسميًّا. لم يبتسموا لأحد، باستثناء رفيقي الذي نسيتُ اسمه. صادفنا طاولة تقبع بعيدًا في إحدى زوايا المطعم.

سألني: «من أين قدمت»؟ أجبتُ موضّحة: «من جزر الهند الشرقيّة. هي جزء من الإمبراطورية الهولندية حيث وُلدتُ وترعرعت». علّقتُ على جمال البرج قائلةً: «إنه، على الأرجح، برج لا مثيل له في العالم». وأثرتُ حنقه من غير عمد.

«سيُفكّك بعد أربع سنوات من يومنا. ذلك أن هذا المعرض العالمي قد كلّف الحكومة أموالاً من الخزينة تفوق كلفة الحربين الحديثتين اللتين انخرطنا فيهما. يريدون أن يولّدوا لدينا الانطباع، من الآن فصاعدًا، بأنّنا سنشكّل اتّحادًا يضمّ كلّ بلدان أوروربا، وبأنّنا سنحيا أخيرًا بسلام. أتصدّقين ذلك؟».

وإذ لم أملك رأيًا، آثرتُ السكوت. كما سبق أن قلت، الرجال مولعون بتفسير الأمور ولديهم آراء حول كلّ شيء.

«ليتك رأيت الصيوان الذي بناه الألمان. حاولوا إذلالنا. ذاك الشيء الهائل، الذي يفتقر إلى الذوق، المليء بتراكيب من آليات ومعدنيّات وسفن مصغّرة، يُقال إنّها ستحكم البحار بأسرها قريبًا، وبرج عملاق سيمتلىء بـ.....».

توقّف لبرهة، وكأنّه يتأهّب لقول أمر بذيء.

«...الجعة! يقولون إنّه تكريم للقيصر، لكنّني واثق ثقة مطلقة بأنّ المجموعة كلّها ترمي إلى هدف واحد: إنذارنا بوجوب الاحتراز. منذ عشر سنوات، أوقفوا جاسوسًا يهوديًّا أكّد أنّ الحرب ستقرع أبوابنا من جديد. لكنّهم اليوم يُقسمون ببراءة الرجل المسكين، وكلّ ذلك بسبب زولا، ذاك الكاتب الملعون. فقد تمكّن من شَطْرِ مجتمعنا. والآن، نصف فرنسا تريد تحريره من جزيرة الشيطان، حيث عليه أن يبقى إلى الأبد».

طلب كأسين أُخريين من كحول اليانسون. عبَّ كأسه على عجل، وقال إنّه شديد الانشغال، ونصحني بضرورة زيارة صيوان بلادي إن كنت سأمكث لمدّة أطول.

بلادي؟ لم أر أيّ طواحين أو أحذية خشبيّة.

في الواقع، أعطوه التسمية الخطأ: صيوان الجزر الشرقية الهولندية. لم يتسنَ لي بعدُ أن أقصده. أنا واثق بأنّه يؤدّي الغرض نفسه ككلّ المباني الأخرى الباهظة جدًّا التي نراها هنا اليوم. لكن تناهى إليّ أنّه مثير للاهتمام جدًّا».

استقام. تناول بطاقة تعريفيّة، سحب قلمًا ذهبيًّا من جيبه، وشطب اسمه الثاني، مؤشّرًا على أمله في تقاربنا يومًا ما.

رحل، بعد أن ودّعني بقبلة رسميّة طبعها على يدي. نظرتُ إلى البطاقة. لم تحمل عنوانًا بحسب التقليد المتعارف عليه. لم أكن أريد الشروع في تكديس الأشياء غير المُجدية، وحالما صار بعيدًا عن ناظري، كوّرت البطاقة، ورميتها.

بعد دقيقتين، رجعتُ لاستعادتها؛ كان ذاك الرجل هو مَنْ وجّه القنصل رسالته إليه!

الجزء الثاني



«هيفاء ممشوقة القدّ، أنيقة ومرنة في حركتها، كحيوان برّي، ماتا هاري ذات الشعر الأسود المتماوج بغرابة، المرتحل بنا إلى مكان سحري».

«الأكثر أنوثة من النساء قاطبة، تخطّ بجسدها مأساة غير مألوفة».

«ألف انحناءة وحركة تتزاوج تمامًا مع ألف إيقاع مختلف».

تبدو هذه القصاصات الصحافيّة وكأنّها شظايا من فنجان شاي مكسور، تروي قصة حياةٍ لم أعد أذكرها. حالما أخرج من هنا، سأجلّد القصاصات وسيكون لكل ورقة إطار ذهبي. وستكون هذه تركتي لابنتي، بالنظر إلى أنّ كلّ مالي قد صودِر. عندما يلتمّ شملنا، سأخبرها عن فولي بيرجير، حلم كلّ النسوة اللاتي تمنّين يومًا أن يرقصن فيه أمام جمهور. سأخبرها كم هي جميلة مدريد دو لوس أوسترياس، وكذلك شوارع برلين، والقصور في مونتي كارلو. سنجوب التروكاديرو والسيركل رويال، وسوف نرتاد ماكسيمز ورامبل مايرز وكلّ المطاعم التي ستُسرّ لعودة أشهر زبونة من زبائنها.

سنذهب معًا إلى إيطاليا، وسنبتهج لحضور «الهالك دياغليف على وشك الإفلاس». سأُريها لاسكالا في ميلان، وأقول لها بفخر: «هنا أدّيتُ باخوس وغامبرينوس، من تأليف مارسينو».

أنا على يقين بأنّ ما أمرّ به الآن سيُضيف سمعة إلى سمعتي؛ فأيّ امرأة لا ترغب في أن يراها الآخرون حسناء لعوبًا، «جاسوسة» مزعومة، مكتنزة بالأسرار؟ الكلّ يُغازل الخطر، مادام لا وجود له فعلا.

قد تسألني:

«وماذا عن والدتي، مارغاريتا ماكلاود؟».

وسأجيب:

«لا أعرف من هي تلك المرأة. فكّرتُ وتصرّفت طوال حياتي كماتا هاري، المرأة التي طالما أذهلت الرجال وستُذهلهم، التي طالما حسدتها النسوة وسيحسدنها. مُذ غادرتُ هولندا، فقدتُ كلّ حسّ بالمسافة، بالخطر، ولا يرعبني أيٌّ منهما. وصلت إلى پاريس بلا مال ولا ملابس مناسبة، وانظري كيف تقدّمت في الحياة. آمل أن يكون لك ذلك أيضًا».

وسأتحدّث عن رقصاتي. أحمد الله أن لديّ صورًا تُظهر معظم الحركات والأزياء، خلافًا لما قاله النّقاد الذين لم يستوعبوني. عندما كنت أعتلي المسرح، كنت ببساطة أنسى المرأة التي كنتها، وأقدّم كلّ شيء إلى الله. لهذا قدرتُ على التعرّي بتلك السهولة. لأنني في تلك اللحظة، لم أكن شيئًا؛ ولا جسدي حتّى؛ كنت مجرّد حركات مندمجة في الكون.

سأكون ممتنّةً دومًا لموسيو غيميه الذي منحني فرصة الأداء الأولى في متحفه الخاص، والتي ارتديتُ خلالها ملابس باهظةً جدًّا كان قد استوردها من آسيا لضمّها إلى مجموعته الخاصّة، مع أنّها كلّفتني نصف ساعة من الجنس وقليلًا من اللذّة. رقصتُ أمام جمهور من ثلاثمئة شخص بينهم صحافيون ومشاهير وسفيران على الأقلّ: أحدهما من اليابان والآخر من ألمانيا. وبعد يومين، كنتُ حديث الصحف، المرأة الغريبة التي وُلدت في بُقعة قصيّة من الإمبراطورية الهولنديّة، جلبت معها «تديُّن» شعب أراضٍ نائية و«تفلّته».

كان مسرح المتحف قد زُيّن بتمثال شِوَ، إله الخلق والتدمير الهندوسي. أُضيئت شموع في زيوت عطريّة. وأدْخلت الموسيقا الجميع في نوعٍ من الانخطاف، ما عداي. فبعد أن عاينتُ بدقّة الملابس التي ائتُمنت عليها، عرفتُ بالضبط ما خطّطت لفعله. إما الآن وإلاّ فلا، فرصة واحدة في حياتي التي عرفت البؤس حتى حينه، حياة كنت ألتمس فيها الخدمات على الدوام مقابل الجنس. كنت قد ألفتُ الأمر حينذاك؛ لكن أن تألف أمرًا يختلف عن شعورك بالرضا إزاء أمرٍ آخر. ولـم يكن المال كافيًا. أردتُ المزيد!

عندما شرعتُ أرقص، عرفتُ أنّ عليّ فعل شيء، وحدهم الراقصون في الملاهي يفعلونه، من دون أن يتكبّدوا عناء إلباسه معنى. كنتُ في مكان محترم، وكان الجمهور جمهورًا يتوق إلى جديد، لكنّه يفتقر إلى الشجاعة لارتياد أماكن معيّنة، حيث يُمكن للعيون أن تترصّدهم فيها.

كان لباسي ينطوي على طبقات من أوشحة، الواحد فوق الآخر. خلعتُ الأول ولـم يبدُ أن أحدًا قد لاحظ كثيرًا. لكن عندما خلعتُ الثاني، فالثالث، أخذ الناس يمعنون النظر. بخلع الخامس، كان الجمهور مسمّرًا على ما أفعل، غير آبهين كثيرًا للرقصة، بل متسائلين إلى أي مدى سأذهب. حتّى النسوة، اللاتي كانت نظراتي تلتقي نظراتهن بين الحركة والحركة، لـم يُصدمْن أو يبدينَ غضبًا؛ لا بُدّ من أن الأمر قد أثارهن بقدر ما أثار الرجال. كنت أعلم أنّني لو كُنت في بلدي، لأُرسلت من فوري إلى السجن، غير أنّ فرنسا كانت مثالاً على المساواة والحريّة.

عندما بلغتُ الوشاح السادس، توجّهتُ إلى تمثال شِو، ممثلة بلوغي النشوة الجنسيّة، وطرحتُ نفسي أرضًا، خالعةً الوشاح السابع والأخير.

للحظات، لـم يتناه إليّ ولو صوت من الجمهور. فقد عجزتُ عن رؤية أحد، حيث كنت مُستلقية. بدوْا جميعًا وكأنهّم قد تحجّروا أو ارتاعوا. ثـمَ علت أوّل «براڤو» من صوتٍ أنثوي. وسرعان ما نهض كلّ من في القاعة مُصفّقين تصفيقًا حارًّا. نهضتُ وإحدى ذراعيَ تغطيّ نهديّ والأخرى ممدودة تُغطّي أوسطي ذاك! حنيتُ رأسي تعبيرًا عن تقديري، وتركتُ المنصّة إلى حيث كنتُ قد وضعتُ، قصدًا، رداءً حريريًّا. عُدتُ، واصلتُ تقديم الشكر على التصفيق المستمرّ، وقرّرتُ أن من الأفضل أن اغادر وإلاّ أعود. كان هذا جزءًا من اللغز.

لكنّني لاحظتُ أنّ شخصا واحدًا لـم يصفّق، بل اكتفى بالابتسام. كان ذاك الشخص مدام غيميه.

وصلتني دعوتان في الصباح التالي: إحداهما من مدام كيرييـڤسكي، تسألني فيها إن كان بإمكاني تكرار الأداء الراقص نفسه في حفل راقص خيري هدفه جمع الأموال لجرحى الجنود الروس، والأخرى من مدام غيميه، تدعوني فيها إلى نزهة على طول ضفاف نهر السين سيرًا على الأقدام.

لـم تكن قد أُلصقت بعد على أكشاك الصحف بطاقات بريدية يتصدّرها رسم وجهي، ولـم يكن من علبة سجائر أو سيجار، أو مرطّب للاستحمام، باسمي. كنت لا أزال مجهولة لامعة، لكنّني خطوتُ الخطوة الأهمّ؛ كلّ من حَضر غادر مفتونًا، وسيكون ذلك أفضل دعاية أطلبها.

قالت مدام غيميه: «من الجيد أنّ الناس جاهلون. إذ لا شيء ممّا قدّمته له صلة بأي تقليد شرقي. لا بُدّ من أنّك ابتدعت كلّ خطوة بمرور وقت الأمسية».

تـجمّدتْ، وتساءلتُ إن كان تعليقها التالي سيكون عن قضائي الليلة، ليلة بسيطة واحدة مُزعجة، مع زوجها.

«لكنّ الوحيدين الذين سيعرفون ذلك هم الأنتربولوجيون المضجرون حتّى الموت، الذين يتعلّمون كلّ شيء من الكتب؛ لكنّهم لن يتمكّنوا أبدًا من افتضاحك».

«لكنّني...»

«نعم، أصدّق أنّك ذهبت إلى جاوة، وأنّك مُطّلعة على الأعراف المحلّية، وربما كنت خليلة أو زوجة ضابط من ضبّاط جيش بلادك. وشأنك شأن كلّ الشابات، حلمتِ بأن تكون شهرتك في پاريس يومًا ما؛ لهذا هربتِ عند أول فرصة سنحت لك، وجئتِ إلى هنا».

واصلنا المشي، لكن في صمت الآن. كان بإمكاني أن أواصل الكذب، وهو أمرٌ درجتُ عليه طوال حياتي، وكان بإمكاني أن أكذب حول أيّ شيء، باستثناء ما عرفته مدام غيميه تمام المعرفة. الأفضل الانتظار ورؤية مآل هذا الحديث.

«لديّ نصيحة لك»، قالتها مدام غيميه عندما هممنا بعبور الجسر المفضي إلى البرج المعدني الجبّار.

سألتها إن كان بإمكاننا الجلوس. صَعُب عليّ التركيز ونحن نخترق حشودًا من الناس. وافقتْ، ووجدنا مقعدا عند شان دو مارس. رمى بعض الرجال، الذين بدوا جدّيين ومستغرقين في التفكير، كُرات معدنية، محاولين إصابة قطعة من الخشب؛ بدا لي المشهد هزليًا.

«تحدّثتُ مع بعض الأصدقاء الذين حضروا أداءك، وأعلم أنّ صحف

الغد، ستعلي شأنك. لا تقلقي بخصوصي؛ لن أتفوّه بكلمة حول «رقصك الشرقي»".

واصلتُ الإصغاء إليها. لـم يكن في وسعي محاججتها حول أيّ شيء.

«نصيحتي الأولى لك هي الأصعب، ولا دخل لها بأدائك: لا تُغرمي أبدا. الحبّ سُمٌّ. ما إن تُغرمي، حتّى تفقدي السيطرة على حياتك. سيصبح قلبك وعقلك ملكًا لشخص آخر. وسيُهدّد وجودك. ستبدأين بفعل كلّ شيء للتمسّك بـمن تحبّين، وستفقدين كلّ استشعار للخطر. الحبّ، هذا الشيء الخطير الذي يتعذّر تفسيره، سيمحو عن وجه الأرض كلّ ما أنت عليه. ومحلّه، سيحلّ كلّ ما يريد حبيبك أن تكونيه».

تذكّرتُ النظرة في عينيّ زوجة أندرياس قبل أن تُطلق النار على نفسها. الحبّ يقتلنا على حين غرّة، من دون أن يترك آثارًا للجريمة.

توجّه صبي نحو عربة لبيع البوظة. استغلّت مدام غيميه المشهد لتُطلق نصيحتها الثانية.

«يقول الناس إنّ الحياة ليست مُعقّدة، مع أنّها معقّدة جدًا. البساطة هي أن نرغب في البوظة، في دمية، أن نربح لعبة پيتانك، كهؤلاء الرجال. إنهم آباء ذوو مسؤوليات، يتعرّقون ويُعانون، وهم يحاولون أن يجعلوا كرة معدنيّة سخيفة تُصيب قطعة خشبيّة صغيرة. البساطة هي أن نطمح إلى الشهرة. لكنّ الصعب هو الحفاظ على تلك الحال لأكثر من شهر، أو سنة، خصوصا إذا كانت تلك الشهرة مرتبطة بالجسد. البساطة هي أن ترغبي في رجل من صميم قلبك، لكن عندما يكون ذاك الرجل متزوّجا ولديه أولاد ولن يتخلّى عن عائلته مقابل أيّ شيء في العالم، يُمسي ذلك مُستحيلا ومُعقّدا».

توقّفتْ وقفة طويلة. فاضت عيناها بالدموع، وأدركتُ أنّها كانت تتحدّث عن خبرة.

جاء دوري لأتكلّم. بنفسٍ واحد، قلتُ لها إنّني كذبتُ. لم أولد في الجزر الشرقيّة الهولنديّة ولم أترعرع فيها، لكنّني عرفت ذاك المكان حقّ المعرفة، ناهيك بمعاناة النسوة اللاتي قصدنه بحثًا عن الاستقلاليّة والتشويق، لكنهنّ لم يجدن سوى الوحدة والضجر. وبأكثر أمانة ممكنة، حاولتُ أن أُعيد سرد محادثة زوجة أندرياس الأخيرة معه، ساعيةً إلى مواساة مدام غيميه، من دون أن أُفصح أنّني عرفتُ أنّها كانت تقصد نفسها في النصيحة التي أسدتها إليّ.

«كلّ شيء في هذا العالم له وجهان. إنّ أولئك الذين هجرهم ذاك الإله الوحشي المدعو الحبّ، مُذنبون هم أيضًا، لأنّهم ينظرون إلى الماضي ويتساءلون لماذا وضعوا للمستقبل كمًّا كبيرا من الخطط. لكن لو أمعنوا البحث في ذكرياتهم، لَتذكّروا اليوم الذي فيه زُرعت البذرة، وكيف أنّهم اعتنوا بها، وسمّدوها، وجعلوها تنمو حتى تصبح شجرة يستحيل اقتلاع جذورها».

لاشعوريًّا، تحسّستْ يدي في الحقيبة مكان احتفاظي بالبذار التي اعطتني إياها والدتي قبل أن تموت. كنت أحملها معي على الدوام.

«لذا، عندما تتعرّض امرأة أو رجل للهجر ممّن يُحبّون، يُركّزان في وجعهما فحسب. لا يتوقّف أحد للتساؤل عمّا يحدث للشخص الآخر. ألا يمكن أن يكون هذا الآخر متألّمًا أيضا، لأن المجتمع دفعه إلى التخلّي عن قلبه من أجل البقاء مع عائلته؟ لا بُد أنّه يستلقي كلّ ليلة في سريره، ساهدًا، مرتبكًا حائرا، سائلا نفسه إن كان قد اتّخذ القرار الخطأ. وأحيانا

أخرى، يكون واثقًا بأنَّ واجبه كان يملي عليه حماية عائلته وأولاده. غير أنَّ الوقت ليس في صالحه؛ فكلّما بَعُدت لحظة الفراق، تطهّرت الذكريات من اللحظات الصعاب، وتحوّلت اشتياقًا إلى ذلك الفردوس المفقود.

لا يعود بإمكان الآخر المقاومة. فقد أصبح بعيدًا. يبدو منشغلاً خلال الأسبوع، ويقصد في يومَي السبت والأحد شان دو مارس ليلعب بالكرة مع أصدقائه. يتلذّذ ابنه بالبوظة، وتراقب زوجته الفساتين الأنيقة المستعرَضة أمامها، وفي عينيها نظرة حزن. ما من ريح قوية بما يكفي لجعل المركب يُغيِّر اتّجاهه؛ سيبقى في المرفأ، يُغامر في المياه الراكدة فقط. الكلّ يعاني؛ أولئك الذين يهجرون، وأولئك الذين يمكثون، وعائلاتهم، وأولادهم. لكن لا يسع أحدٌ فعل أيّ شيء».

أبقت مدام غيميه عينيها مسمَّرتين على العشب المزروع حديثًا في وسط الحديقة. ادّعت أنها كانت «تتحمّل» كلماتي. لكنّني عرفتُ أنّني وضعتُ إصبعي على جرحها القديم، وأنّه سيعاود النزف. بعد مرور بعض الوقت، نهضتُ واقترحت أن نرجع. لا بُدّ من أنّ خدمها قد بدأوا بإعداد العشاء. وأراد فنّان متعاظم الشهرة والأهميّة زيارة مُتحف زوجها مع أصدقائه، وستُختتم الأمسية بزيارة معرضه، حيث كان ينوي أن يُريَها بعض اللوحات.

«إنّ في نيّته أن يجعلني أشتري شيئًا طبعًا. وفي نيّتي أن ألتقي أشخاصًا جددا ومختلفين، أن أخرج من عالم بدأ يُضجرني».

تمشّينا على مهل. وقبل عبور الجسر مجدّدًا باتجاه التروكاديرو، سألتني إن كنتُ أودّ الانضمام إليهم. رددتُ أنّني أودّ ذلك؛ لكنّني تركتُ فستان السهرة في الفندق، وقد لا يكون ما أرتديه ملائمًا للمناسبة.

في الواقع، ليس لدي فستان سهرة يقرب ولو قليلا من أناقة وجمال

الفساتين التي ارتدتها النسوة اللاتي رأيناهن «يتمشّين في المتنزّه». و«الفندق» كان مجرّد تورية للنزل الذي كنت أعيش فيه على مدى الشهرين المنصرمين، والوحيد الذي سمح لي باستقبال «ضيوف» في غرفة النوم.

غير أنّ النساء قادرات على فهم إحداهن الأخرى من دون ولو تبادل أي كلمة.

«يمكنني إعارتك فستانًا لليلة، إذا شئتِ. لديّ أكثر ممّا يمكنني أن ألبس».

قبلتُ عرضها بابتسامة، وتوجّهنا إلى منزلها.

إذا كانت الوجهة التي تحملنا الحياة إليها مجهولة، فإننا لا نتوه أبدًا.

«هذا پابلو پيكاسو، الفنّان الذي كنت أحدّثك عنه».

ومن اللحظة التي عرَّفت واحدنا بالآخر، نسي پيكاسو أمر كلّ الضيوف الآخرين، وصرف المساء كلّه محاولا محادثتي. تحدّث عن جمالي، وطلب إليّ أن أتفرّغ له، قائلاً إنّ عليّ أن أرافقه إلى مالاغا، ولو لأسبوع بعيدا عن جنون پاريس. كان هدفه واحدًا، ولم يحتج إلى النطق به: أن يستدرجني إلى فراشه.

أحرجني إلى أقصى الحدود هذا الرجل القبيح، الجاحظ العينين، القليل التهذيب الذي خال نفسه أعظم العظماء. كان أصدقاؤه أكثر تشويقًا، بمن فيهم رجل إيطالي، يُدعى أماديو موديغلياني، بدا أكثر نُبلاً، أكثر أناقةً، ولم يحاول ولو للحظة أن يُكرهني على محادثته. كلّ مرّة انتهى فيها پابلو من أطروحاته المطوّلة والمبهمة عن الثورات التي كانت تحدث في الفنّ، كنتُ ألتفتُ إلى موديغلياني. بدا أنّ ذلك قد أغاظ پيكاسو.

سأل أماديو: «ما عملك؟».

شرحتُ أنّني كنتُ أكرّس نفسي للرقص المقدّس المستمدّ من قبائل جاوة. ومع أنّه لم يستوعب الأمر تمامًا، على ما بدا، فقد شرع يتحدّث بلباقة عن أهميّة العيون في الرقص. كان مأخوذًا بالعيون. ومتى صدف ارتياده المسرح، لم يكن يول حركات الأجساد اهتمامًا كبيرًا، بل كان يركّز في ما كانت العيون تحاول قوله.

«آمل أن يكون هذا ما يحدث في الرقصات الجاوية المقدّسة، فأنا أجهلها تمامًا. أعرف فقط أنّهم في الشرق، قادرون على تجميد أجسادهم تمامًا، وتركيز ما يُريدون قوله بكامل قوّتهم في أعينهم».

لمّا كنتُ أجهل جواب ذلك، هززتُ رأسي فقط، وهذه إيماءة غامضة قد تعني نعم وقد تعني لا، بحسب تفسيره لها. قاطع پيكاسو الحديث كل الوقت بنظريّاته، غير أنّ أماديو الأنيق واللبق، عرف كيف ينتظر دوره للردّ على الموضوع.

«هل لي أن أُسديكِ نصيحة؟»، سألني عندما أوشك العشاء على الانتهاء، وتهيّأ الجميع للذهاب إلى استوديو پيكاسو. أومأتُ إيجابًا.

«اعرفي ما تريدينه، وحاولي تخطّي توقّعاتك. حسّني رقصك، تمرّني كثيرًا، وضعي لنفسك هدفًا ساميًا، هدفًا يصعب بلوغه. لأنّ هذه هي مهمّة الفنان: أن يتخطّى حدوده. الفنان الذي يرغب في القليل ويبلغه، يكون قد أخفق في الحياة».

كان استوديو الرسام الإسپاني على مقربة. لذا توجّهنا جميعًا إليه مشيًا. رأيتُ أمورًا أذهلتني وأخرى مقتُّها ببساطة. لكن أليس هذا هو الشرط الإنساني؟ الذهاب من طرف أقصى إلى آخر، من دون التوقّف وسطهما؟ لمضايقة پيكاسو، وقفتُ أمام لوحة من اللوحات، وسألته عن سبب إصراره على تعقيد الأمور.

«استغرق تعلُّمي الرسم بأسلوب جهابذة النهضة أربع سنوات، واستغرقت عودتي إلى الرسم كولد، حياتي كلّها. هذا هو السرّ الحقيقي: رسوم الأولاد. قد يبدو ما ترينه طفوليًّا، لكن هذا هو الفن».

كانت إجابته لامعة، لكنّني عجزتُ عن العودة في الزمن وتغيير رأيي

فيه. حينها كان موديغلياني قد غادر، وظهرت علامات الإجهاد واضحة على مدام غيميه رغم حفاظها على رباطة جأشها، وألهت پيكاسو غيرة حبيبته فيرناند عليه.

قلتُ إننا جميعًا قد تأخَرنا، وذهب كلّ منّا في سبيله. لم ألتقِ ثانيَة لا پابلو ولا أماديو. تناهى إليّ أنّ فيرناند قرّرت هجر پابلو، لكن لم يُفصَح لي عن السبب بالضبط. التقيتُها مرّة أخرى، بعد بضع سنوات، عندما كانت تعمل بائعة في متجر للأثريّات. لم تعرفني، وادّعيت أنّني لم أعرفها، واختفت هي أيضًا من حياتي.

لم تكن السنوات التي تلت كثيرة. لكن اليوم، عندما أستحضرها، تبدو أزليّة. تطلّعتُ إلى نور الشمس فقط، وغفلتُ عن العواصف. تركتُ نفسي تُذهل لجمال الورد وغفِلتْ عن الأشواك. والمحامي الذي دافع عنّي بتراخٍ في المحكمة كان أحد عشّاقي الكثر. لهذا، يُمكنك، أستاذ إدوار كلونيه، أن تمزّق هذه الصفحة من الدفتر وترميها، إذا جرت الأمور كما خطّطت لها بالضبط، وانتهتْ بي الحال أمام فرقة رماية. لسوء الحظ، ليس لديّ أي شخص آخر أعهد إليه بهذا. نعرف جميعًا أنّني لن أُقتَل بداعي هذا الزعم السخيف بأنني جاسوسة، بل لأنني قرّرت أن أكون ما حلمت على الدوام بأن أكونه، وثمن الحلم دومًا باهظ.

كان رقص التعرّي قائمًا، ويبيحه القانون، منذ نهاية القرن الماضي. لكنّه عُدّ على الدوام مُجرّد استعراض للجسد. وأنا حوّلتُ ذاك العرض البشع فنًّا. عندما أخذوا يحظّرون رقص التعرّي، تمكّنتُ من مواصلة عروضي، لأنّها كانت لا تزال تحت غطاء القانون. كانت بعيدة عن سفاهة النسوة الأخريات اللائي تعرّين في العلن. حضر عروضي مؤلّفون موسيقيّون، مثل

بوتشيني وماسينيه، وسفراء، مثل ڤون كلانت وأنطونيو غوڤييا، ووُجهاء، مثل بارون روتشايلد وغاستون مينييه. وأنا أخطّ هذه الأسطر، يؤلمني التفكير في أنّهم لا يفعلون شيئًا لمنحي حرّيتي. في النهاية، ألم يعد الكابتن درايفوس من جزيرة الشيطان بعد أن اتُّهم ظلمًا؟

سيقول كثيرون: لكنّه كان بريئًا! نعم، وأنا كذلك. ما من دليل حسّي واحد ضدّي يتعدّى ما شجّعتُ عليه بنفسي بهدف إعلاء شأني بعد أن أقرّر اعتزال الرقص (رغم أنّني راقصة ممتازة). وإلاّ، لما توكّل عنّي أهمّ الوكلاء في عصره، السيد أستروك، الذي توكّل أيضًا عن أعظم المواهب الروسيّة.

أوشك أستروك أن يدبّر لي عرضًا راقصًا مع نييجينسكي في لاسكالا. غير أنّ وكيل راقص الباليه هذا وعشيقه، عدّني صعبة المراس ومزاجيّة ولا أُطاق. وبابتسامة على ثغره، أصرّ أن أؤدّي فنّي منفردة، من دون أيّ دعم من الصحافة الإيطاليّة أو مديري المسرح. وبذلك، مات جزء من روحي. عرفتُ أنّني كنت أتقدّم في السن، وأنّني سرعان ما سأفتقر إلى المرونة والخفَة اللتين تمتّعتُ بهما في صباي. والصحف الجادّة التي أثنت عليّ كثيرًا في البداية، باتت ضدّي.

ومُقلِّداتي؟ أخذت ملصقاتٌ تظهر فجأة في كلّ زاوية، كُتبتْ عليها أمور كهذه: «خليفة ماتا هاري». وجلّ ما كنّ يفعلنه هو هزّ أجسادهن بفظاعة والتعرّي من دون لمسة فنّ واحدة أو إيحاء.

لا يسعني التذمّر من أستروك، مع أنّه في هذه المرحلة، كان آخر ما يريده هو أن يرى اسمه مرتبطًا باسمي. ظهر بعد أيام قليلة على أدائي سلسلة العروض الخيريّة التي يعود ريعها إلى جرحى الجيش الروسي.

ساورني الشكّ في أنّ كلّ المال المجموع من بيع الطاولات بثمن الذهب سيجد سبيله إلى ميادين القتال في المحيط الهادئ، حيث كان القيصر يتعرّض للهزيمة على أيدي اليابانيين. لكن، مع هذا، كانت تلك عروضي الأولى بعد عرضي في متحف غيميه، وسرّ الجميع بالنتيجة. استطعتُ استقطاب اهتمام الناس بعملي. ملأت السيدة كيرييفسكي خزينتها وخزينتي بالمال، وخال الأرستقراطيون أنّهم كانوا يُسهمون في دعم قضيّة نبيلة، وأتيح للجميع، الجميع بالمطلق، فرصة رؤيةِ امرأةٍ فاتنةٍ عارية من دون ذرّة خزي واحدة.

ساعدني أستروك على إيجاد فندق محترم يليق بشهرتي الصاعدة، وتفاوض عنّي بخصوص عقود عمل لي في مختلف أرجاء پاريس. حصل لي على عرض في الأولمپيا، أهمّ قاعة حفلات موسيقيّة في ذاك العصر. أستروك، وهو ابن حاخام بلجيكي، راهن بكلّ شيء على مغمورين تمامًا أصبحوا رموزًا اليوم، مثل كاروسو وروبينشتاين. في اللحظة المناسبة، أمسك بيدي ليُريني العالم. وبفضله، غيّرتُ مسلكي تمامًا. أخذتُ أجني من المال ما يفوق تصوّري. أدّيتُ عروضًا في قاعات الحفلات الموسيقيّة الكبرى في المدينة. وتمكّنتُ أخيرًا أن أنغمس في الترف الذي قدّرته أكثر من أيّ شيء آخر في العالم، وهو الموضة.

لا أدري كم أنفقت، لأنّ أستروك قال لي إنّ من غير اللائق السؤال عن السعر.

«اختاري ما يعجبك وسأطلب إرساله إلى الفندق حيث تنزلين. سوف أهتمّ بالباقي».

الآن، وأنا أخطّ هذه الكلمات، أتساءل: هل احتفظ بجزءٍ من المال؟

لكن لا يجدر بي التفكير هكذا. لا يجدر بي كبت المرارة في قلبي، لأنّني إذا خرجتُ من هنا، وهذا ما أتوقّع حدوثه، إذ بكلّ بساطة يستحيل أن يتخلّى الجميع عنّي، فسوف أكون قد بلغت الحادية والأربعين من العمر، ولـمّا أزل أرغب في الاحتفاظ بحقّي في السعادة. ازداد وزني كثيرًا، ولا أكاد أستطيع استئناف الرقص، لكن في العالم ما يتعدّى ذلك.

أفضّلُ الظنّ بأستروك شخصًا تجرّأ على المجازفة بكلّ ثروته لبناء مسرح، مُفتتحًا إياه بباليه *The Rite of Spring* لـمؤلّف موسيقي روسي مغمور أعجز عن تذكّر اسمه. حصل على الدور الأول فيها ذاك الأخرق نييجينسكي، الذي قلّد مشهد الاستمناء، وهو المشهد الذي أدّيته في عرضي الأول بـپاريس.

أفضّلُ تذكّر أستروك رجلًا دعاني يومًا إلى ركوب القطار معه باتجاه نورماندي. ففي اليوم السابق تحادثنا بحنين عن رؤية البحر بعد طول انقطاع. وكان قد انقضى على التعامل بيننا خمس سنوات تقريبا.

جلسنا هناك عند الشاطىء، كلانا قليل الكلام، إلى أن أخذتُ صفحة من صحيفة في حقيبتي ومددتُ بها إليه ليقرأها.

«ماتا هاري المنحطّة: كثير من التعرّي وقليل من الموهبة». هكذا جاء عنوان المقال.

قلت: «نُشرَ اليوم».

فيما كان يقرأ، نهضتُ، وسرتُ نحو حافة الماء، ملتقطةً بعض الحجارة.

«خلافًا لـما يخطر لك، سئمتُ وتعبت. جنحتُ عن أحلامي ولستُ الشخص الذي تصوّرت أن أكونه».

قال أستروك متفاجئا: «ما قصدك؟ أنا أمثّل العظماء من الفنّانين فقط، وأنت منهم! هل مجرّد مراجعة صحافيّة من شخص لا يملك أفضل من ذلك يكتبه يكفي لكي تستائي؟».

«لا، لكنّه أوّل ما أقرأه عن نفسي منذ زمن بعيد. أنا أختفي من المسارح والصحافة. يراني الناس مجرّد ساقطة تتعرّى في العلن تحت ذريعة فنّية ما».

نهض أستروك وتوجّه نحوي. التقط هو أيضًا بعض الحجارة من الشاطىء ورمى بأحدها في المياه، بعيدًا عن الأمواج المتكسّرة.

«أنا لا أتوكّل عن العاهرات، لأنّ ذلك سيقضي على مسيرتي المهنيّة. وكان عليّ، بلا ريب، أن أشرح لزبون أو اثنين سبب وجود ملصق لماتا هاري في مكتبي. أتعلمين ما تفوّهت به؟ أنّ ما تفعلينه هو إعادة سرد أسطورة سومريّة تذهب فيها الإلهة إينانا إلى العالم المحرّم. عليها عبور البوّابات السبع؛ وعند كلّ منها حارس. ولكي تدفع ثمن عبورها، كان عليها خلع قطعة من ملابسها. ألّف كاتب إنكليزي عظيم، نُفي إلى پاريس ومات وحيدًا ومُعوزًا، مسرحية ستصبح من الأعمال الكلاسيكيّة ذات يوم، تروي قصّة هيرودوس الذي حصل على رأس يوحنا المعمدان.

«سالومي! أين تلك المسرحيّة؟».

أخذت معنوياتي ترتفع.

«لا أملك حقوقها. ولا يُمكنني مقابلة مؤلفها بعد اليوم، أوسكار وايلد، إلاّ إذا ذهبتُ إلى المقبرة واستحضرتُ شبحه. لقد فات الأوان».

عاودني الإحباط والبؤس، وكذلك فكرة أنّني سأُمسي عمّا قريب مُسِنَّة وقبيحة وفقيرة. كنت قد تخطّيتُ الثلاثين وهو عمر مفصلي. التقطتُ حجرًا ورميتُ به بقوَة تفوق القوّة التي رمى بها أسترُوك حجره.

«ابتعد، أيها الحجر، واحمل ماضيَّ معك. كلَّ عاري، كلَّ ذنبي، وكلّ أخطائي التي ارتكبت».

رمى أسترُوك حجره، وشرح لي أنّني لم أرتكب أخطاء. أنّني مارستُ حقّي في الاختيار. لم أُصغِ إليه، ورميتُ حجرًا آخر.

«وهذا عن الإساءة التي تعرّض لها جسدي وروحي. مُذ عرفتُ تجربتي الجنسيّة المروّعة الأولى وحتّى اللحظة، عندما أُضاجع رجالا أثرياء، أؤدّي أفعالا تتركني غارقة في دموعي. كلّ هذا من أجل النفوذ والمال والفساتين...والأشياء التي تهرم. تعذّبني كوابيسي التي خلقتها لنفسي بنفسي».

«لكن، ألستِ سعيدة؟»، سأل أسترُوك الذي ازداد دهشة. في النهاية، قرّرنا ان نقضي بعد ظهر يوم ممتع على الشاطئ.

واصلتُ قذف الحجارة بغضب متنام، وتنامت دهشتي من نفسي. لم يعد الغد غدًا، ولم يعد الحاضر حاضرًا، بل حفرة عمّقتُ حفرَها مع كلّ خطوة خطوتها. تمشّى الناس بمحاذاتنا، كان ثمة أولاد يلعبون، وأتت طيور النورس بحركات غريبة في السماء، وتدحرج الموج أهدأ ممّا تصوّرت.

«هذا لأنّني أحلم بأن أكون مقبولة ومُحترَمة، مع أنّني لا أُدين بشيء لأحد. ما حاجتي إلى ذلك؟ أهدر وقتي على القلق والندم والظلمة. هذه

الظلمة التي تستعبدني فقط، تُقيّدني بصخرة، حيث أُقدّم طعامًا للطيور الجارحة، ولـم يعد بوسعي الانفلات منها».

لـم أستطع البُكاء. اختفت الحجارة في المياه، وأخذت تغرق متجانبة كما لو كان باستطاعتها أن تُعيد معًا بناء مارغريتا زيلّيه في القاع. لكنّني لـم أرد أن أكونها من جديد، المرأة التي نظرت إلى عينَيْ زوجة أندرياس وفهمت؛ المرأة، التي قالت لي إنّ حياتنا مُخطّطة حتّى أدقّ تفاصيلها: نولد، نذهب إلى المدرسة، ونرتاد الجامعة بحثًا عن زوج. ونتزوّج، حتّى ولو كان أسوأ الرجال في العالم، لمجرّد ألاّ نتيح للآخرين القول إننا غير مرغوبين. ونُنجب الأولاد، ونتقدّم في السن، ونقضي نهاية أيامنا على كرسي الرصيف نُشاهد المارّة، مُدّعين أنّنا نعرف كلّ شيء عن الحياة، لكنّنا نعجز أن نسكت في صميمنا الصوت الذي يقول: «يُمكنك أن تجرّب شيئًا آخر».

دنا منّا نورس، زعق ومشى مبتعدًا. اقترب إلى درجة أنّ أسترِوك غطّى عينيه ليحمي نفسه. أعادتني تلك الزعقة إلى الواقع: كنت من جديد امرأة مشهورة، واثقة بجمالها.

«أريد أن أتوقّف. لا يمكنني أن أستمرّ في هذه الحياة. كم من الوقت بقي لي لكي أعمل ممثّلة وراقصة؟».

جاء الجواب الصريح:

«قرابة خمس سنوات».

«فلننه الأمور هنا إذا».

أمسك أسترِوك بيدي:

«لا يمكننا! لا يزال لدينا عقود عمل تُلزمنا، وسوف أُغرَّم إذا لم نلتزمها. وفضلاً عن ذلك، يجب عليك كسب رزقك. أتريدين أن تُنهي أيّامك في ذاك النزل القذر حيث وجدتك؟»

«سوف نلتزم العقود. لقد عاملتني معاملة حسنة، ولن أدعك تدفع ثمن أوهامي بالعظمة والوضاعة. لكن لا تقلق، أعرف أنّني سأواصل كسب رزقي».

ومن دون التفكير كثيرًا، رُحتُ أخبره عن حياتي، وهو أمر كُنت قد احتفظتُ به لنفسي حتى ذلك الوقت، لأنّه كان برمّته مجرّد كذبة إثر كذبة. فيما كنت أتحدّث، أخذت الدموع تنساب على وجهي. سألني أستروك إن كنت بخير، لكنّني تابعتُ إخباره كلّ شيء، ولم يتفوّه بكلمة، بل جلس يُصغي إليّ بصمت.

وإذْ تقبّلتُ أخيرًا أنّني لم أكن ما خلت أنّني عليه، شعرتُ بأنّني أهوي إلى حفرة قاتمة. لكن فجأة، وأنا أواجه جراحي ونُدْبي، أدركتُ أنّني صرتُ أقوى. لم تنسل دموعي من عينيّ، بل من مكان أعمق وأظلم من قلبي، تُخبرني قصة لم أفهمها تمامًا. ها أنذا على طوف، أُبحر في الظلمة المطلقة، لكن هناك في الأفق البعيد، استطعتُ رؤية بريق منارة ستقودني إلى البرّ في نهاية المطاف، هذا إذا سمح هياج البحار. وإذا لم يكن الأوان قد فات.

لم يسبق لي أن فعلت هذا. خِلتُ أنّني إذا تحدّثتُ عن جراحي فسوف أجعلها حقيقيّة أكثر، لكن، كان العكس بالضبط ما يحدث: كانت دموعي تشفيني.

بين الفينة والفينة، كنت ألكم الشاطىء الحصوي بقبضتي، فتنزف

يداي. لكنّني لم أشعر بالألم حتّى، لأنّني كُنت أُشفى. فهمتُ سبب اعتراف الكاثوليك، رغم علمهم بأنّ الكهنة يرتكبون من الخطايا ما يساوي خطاياهم، بل أسوأ. قلّما يهمّ من يُصغي، المهمّ هو ترك الجرح مفتوحًا لكي تطهّره الشمس ويغسله ماء المطر. هذا ما كنت أفعله لحظتها، أمام رجل لم يكن بيني وبينه حميميّة. وكان ذاك السبب الذي مكّنني من التكلّم بذاك القدْر من الحريّة.

مرّ وقت حتى توقّفتُ عن الانتحاب، وتركت صوت الأمواج يُهدّئني. أمسك أستروك بذراعي بلطف. قال إنّ القطار الأخير المتوجّه إلى پاريس يوشك أن ينطلق، وإن من الأفضل أن نُسرع. في طريقنا، أطلعني أستروك على آخر الأخبار في عالم الفن، مَن كان يُضاجع من، ومَن صُرف ومِن أين.

ضحكتُ والتمست منه أن يخبرني المزيد. كان رجلًا حكيمًا وكيّسًا بحقّ؛ عرف أنّ كلّ ما فيّ قد رشح عبر دموعي، ودُفن في الرمل، حيث لا بُدّ أن يقبع فيه إلى أبد الدهر.

«إنّنا نجتاز الفترة العظمى في تاريخ فرنسا. متى جئتِ إلى هنا؟».

«وقت المعرض العالمي؛ كانت پاريس مختلفة حينها، أكثر ريفيَة، مع ذلك خالت نفسها أنّها مركز العالم».

انسابت شمس العصر عبر نافذة الغرفة الأغلى في فندق Hotel Élysée. أحاط بنا أفضل ما يمكن لفرنسا أن تقدّمه: الشمپانيا، الأبسانت، الشوكولاتة، الأجبان، عبق الورد المقطوف حديثا. كان بإمكاني أن أرى في الخارج البرج الكبير الذي أصبح الآن يحمل اسم من بناه، إيفيل.

نظر هو أيضًا إلى الهيكل الحديدي الهائل.

«لم يُبن لكي يبقى مكانه بعد انتهاء المعرض. آمل أن يسيروا في مخطّط تفكيك تلك الفظاعة بسرعة».

أمكنني أن أعارضه الرأي، لكنّه كان سيأتي بمزيد من الحجج ويربح في النهاية. لذا بقيتُ ساكتة فيما تكلّم هو عن الزمن الجميل La belle époque الذي عرفته بلاده. كان الإنتاج الصناعي قد تضاعف ثلاث مرّات، والزراعات تدعمها الآلات، التي كانت قادرة وحدها على أداء عمل عشرة رجال، كانت المتاجر مزدحمة، والموضة قد تغيّرت تماما، الأمر الذي سرّني كثيرًا، إذ وجدتُ عذرًا للتسوّق بهدف تحديث محتويات خزانتي على الأقلّ مرّتين في السنة.

«هل لاحظتِ أنّ الطعام، حتّى الطعام، أضحى أطيب؟».

«نعم، كنت قد لاحظت ذلك، ولم يسرّني كثيرا، لأنّني رحتُ أزداد بدانة».

«قال لي الرئيس إنّ عدد الدرّاجات الهوائيّة قد ارتفع من ٣٧٥ ألفًا في نهاية القرن الماضي إلى أكثر من ثلاثة ملايين اليوم. أصبحت المنازل مجهَزة بالمياه الجارية والغاز. وأصبح بإمكان الناس السفر إلى كلّ مكان خلال عُطلهم. تضاعف استهلاك القهوة أربع مرات، وبات بمقدور الناس شراء الخبز من دون الاصطفاف أمام المخابز».

لم تلا عليّ هذه العظة؟ كان الوقت قد حان لكي أتثاءب، وأعاود تأدية دور «المرأة الخرقاء».

نهض أدولف ميسيمي، وزير الحرب السابق والنائب الحالي في الجمعية الوطنيّة (البرلمان الفرنسي) من السرير، وشرع يرتدي ملابسه بكلّ ما عليها من ميداليّات وأوسمة. كان عليه حضور اجتماع مع كتيبته القديمة. ولا يسعه الذهاب بلباس مدني.

«مع أننا نمقت الإنكليز، فإنهم على حقّ في أمر واحد هو: الذهاب إلى الحرب بذاك الزيّ البني الفظيع الأكثر تمويهًا. أما نحن، فنشعر كأنّ من المحتم علينا الموت متأنّقين، بهذه السراويل والقبّعات الحمراء التي تصرخ للعدو: «يا أنتم، صوّبوا مدافعكم وبندقياتكم إلى هنا! ألا ترونا؟»».

ضحِكَ لنكتته. ضحكتُ أيضًا لإرضائه، وشرعتُ أرتدي ملابسي. لقد مضى زمنٌ طويل منذ أن فقدت كلّ وهم بأنّني محبوبة لما أنا عليه. وتقبّلتُ الآن، بضمير مرتاح، الورد والإطراء والمال، وهي أشياء غذّت أناي وهويّتي المزيّفة. لا شكّ عندي في أنّني سأذهب إلى القبر ذات يوم من دون أن أكون قد عرفتُ الحب أبدًا، لكن ما الفرق؟ في نظري، كان الحب والنفوذ متماثلين.

لكن لم أكن على ذاك القدْر من الغباء لكي أدع الآخرين يدركون

ذلك. رنوتُ إلى ميسيمي وطبعتُ قبلة مدويّة على خدّه، الذي غطّى نصفه شارب يُشبه شارب زوجي المنحوس.

وضع على الطاولة مغلّفًا محشوًّا بألف فرنك.

.لا تُسيئي فهمي، مادوموازيل. بما أنّني قد كنتُ أتحدّث من فوري عن تقدّم البلاد، أعتقد أنّ الوقت قد حان لمساعدة المستهلك. أنا ضابط أجني الكثير وأصرف القليل. لهذا عليّ أن أُسهم بشيء، أنّ أحفّز الاستهلاك».

مجدّدًا، ضحك لنكتته. اعتقد بصدق أنّني أحببتُ كلّ تلك الميداليّات، وقربه من الرئيس الذي حرص على ذكره كلّ مرّة التقينا فيها.

لو أدرك أنّ كلّ شيء كان مُزيّفًا، أنّ الحب، في نظري، لا يطيع أيّ أوامر، لكان ابتعد، وعاقبني لاحقًا. لم يأتني للجنس فحسب، بل ليشعر بأنّه مرغوب، كما لو أنّ شغف امرأة أمكنه فعلًا أن يستثير شعوره بأنّه قادر على كلّ شيء.

نعم، الحبّ والنفوذ متماثلان، وليس في نظري فحسب.

غادر، وارتديتُ ملابسي على مهل. كان لقائي الثاني في وقتٍ متأخّر من الليل خارج پاريس. سوف أمرّ بالفندق، أرتدي أفضل فساتيني، وأذهب إلى نويي، حيث اشترى أوفى عشّاقي ڤيلا باسمي. فكّرت أن أطلب إليه شراء سيارة لي، وتعيين سائق، لكنّني تصوّرتُ أنّ الشك سيساوره.

أمكنني طبعًا أن أكون معه أكثر تطلّبًا، إذا صحّ القول. كان متزوّجا، مصرفيًّا ذا سمعة طيّبة، وسوف تستمتع الصحف بأي شيء قد ألوّح به علنًا. آنذاك، لم يكن يشغلني إلّا «عُشّاقي المشهورون». ونسيت تماما امر العمل المكثّف الذي كافحتُ لإيجاده.

أثناء محاكمتي، سمعتُ أنّ شخصا في رواق الفندق ادّعى قراءة صحيفة، غير أنّه كان في الواقع يراقب كلّ تحرّكاتي. وما إن كنت أخرج، حتّى ينهض من مقعده ويلحق بي بسرّيَة.

تمشّيتُ على جادات أجمل مدن العالم. شاهدتُ المقاهي المكتظّة، والناس المغرقين في الأناقة يمشون مُتنقّلين من مكان إلى آخر. وفيما كنت أصغي إلى موسيقا الكمان تصدر من الأبواب والنوافذ في أكثر الأماكن بهرجة، فكّرت في الحياة وكم أنها أحسنت إليّ في النهاية. لم أحتج إلى ابتزاز أحد، كلّ ما كان عليّ فعله هو معرفة كيفيّة التصرُّف في الهدايا التي تلقّيتها، ومضيّي إلى الشيخوخة بسلام. ولو أنّني نطقتُ بكلمة عن رجل واحد ممن ضاجعتهم، لتحاشى الباقون رفقتي من فورهم، خشية أن يتعرّضوا هم أيضًا للابتزاز والفضيحة.

كان لديّ خططي في الذهاب إلى القصر الذي شيّده صديقي المصرفي لـ «سنواته الذهبيّة». يا له من مسكين، فقد نضب شبابه، لكنّه رفض الإقرار بذلك. سأمكث هناك يومين أو ثلاثة، أركب الخيل. وبحلول يوم الأحد، سأعود إلى پاريس، وأقصد مباشرةً مضمار لونشان، لكي أُظهر لكلّ حُسّادي وكلّ معجبيّ أنّني كُنت فارسة ممتازة.

لكن، لمَ لا أتناول شاي البابونج قبل حلول الليل؟ جلستُ في مقهى، على المصطبة الخارجيّة، فيما كان الناس يحدّقون إلى الوجه والجسم اللذين كانا يتصدّران مختلف البطاقات البريديّة المتناثرة في أرجاء المدينة. ادّعيتُ أنّني كنت هائمة في عالم أحلام اليقظة، مُتقنّعة بهيئة شخص كانت لديه أمور أهمّ يقوم بها.

وقبل أن تسنح لي فرصة طلب أيّ شيء، اقترب مني رجل، وأثنى على

جمالي. تجاوبتُ بنظرة السأم المعتادة، وشكرته بابتسامة صلفة، ثمَ أشحتُ بوجهي. غير أنَ الرجل لم يتحرّك.

«سيُسعف فنجان قهوة لذيذ باقي يومك».

لم أقل شيئًا. أومأ إلى النادل وسأله أخذ طلبي.

قلت للنادل: «شاي البابونج، من فضلك».

كان للغته الفرنسيّة لكنة ثقيلة، إما هولندية وإما ألمانية.

ابتسم الرجل، ولمس حافة قبّعته، وكأنّها لفتة وداع، لكنّه كان يُحيّيني. سأل إن كنتُ لا أُمانع أن يجلس لبضع دقائق. أجبتُ بأنني أمانع. أُفضّل أن أبقى وحدي.

قال الرجل الطارئ: «امرأة مثل ماتا هاري لا تكون وحيدة أبدًا». بتعرُّفه إليَّ، ضرب على وترٍ في داخلي يُدوّي عاليًا في العادة لدى الجميع، إنّه وتر الغرور. مع ذلك، لم أدْعُهُ إلى الجلوس.

تابع القول: «لعلّك تبحثين عن أمورٍ لم تجديها بعد. فبعد وصفك بالمرأة الأكثر تأنّقًا في المدينة بأكملها، وهذا ما قرأتُ مؤخّرًا في إحدى المجلّات، لم يبق لك الكثير لتظفري به، أليس كذلك؟ وفجأة، تتحوّلُ الحياةُ إلى ملل قاتل».

بالحكم على قوله، كان مُعجبًا متأصّلاً؛ وإلاّ فكيف يعلم بأمور تُنشر فقط في المجلّات النسائيّة؟ أيجدر بي منحه فرصة؟ في النهاية، لا يزال الوقت مبكرًا للذهاب إلى نويي وتناول العشاء مع المصرفي.

سأل بإصرار: «أحالفكِ الحظّ في العثور على أيّ جديد؟».

«بالطبع. أنا أُعيد اكتشاف ذاتي كلّ مرّة أحاول فيها ذلك. وهذا الأمتع في الحياة».

لم يكرّر سؤاله هذه المرّة؛ سحب ببساطة كرسيًا وجلس إلى طاولتي. عندما جاء النادل بالشاي الذي طلبت، طلب لنفسه فنجان قهوة كبيرًا، مرفقًا قوله بحركة تُشير إلى أنّه هو من سيدفع الفاتورة.

تابع قائلاً: «فرنسا ستدخل أزمة. وسيكون من الشاقّ جدًّا الخروج منها».

عصر ذاك اليوم بالذات، كنتُ قد سمعت عكس كلامه تمامًا. لكن يبدو أنّ لكلّ رجل رأيه في الاقتصاد، وهو موضوع قلّما همّني.

قرّرتُ أن ألعب لعبته قليلاً. كرّرتُ كلّ ما قاله لي ميسيمي حول ما أسماه *la belle époque*. لكنّه لم يُفاجأ.

«لستُ أتحدّث عن أزمة اقتصاديّة فحسب، بل أتحدّث عن أزمة شخصيّة، أزمة القِيَم. أتعتقدين أنّ الناس تعوّدوا إمكان إجراء محادثات عن بُعد، مُستعملين ذاك الاختراع الذي جلبه الأميركيون إلى المعرض العالمي في پاريس، وهو الآن في كلّ زاوية من زوايا أوروبا؟ تحدّث الإنسان لملايين السنين إلى ما يُمكنه رؤيته فقط. فجأة، وفي غضون عقد واحد، فُصِلت «الرؤية» عن «التحدّث». نعتقد أنّنا تعوّدنا الأمر، لكنّنا لا ندرك التأثير الشديد الذي خلّفه ذلك في ردود أفعالنا العكسية. بكل بساطة، أجسامنا لم تتعوّده بعد.

بصراحة، النتيجة هي أنّنا: عندما نتكلّم بالهاتف، ندخل حالة شبيهة جدًّا ببعض حالات الانخطاف السحري؛ بمقدورنا أن نكتشف أمورًا جديدة حول ذواتنا».

عاد النادل ومعه الفاتورة. ظلّ الرجل صامتاً إلى أن ابتعد النادل.

«أعلم أنّكِ سئمتِ بالتأكيد رؤية راقصات التعرّي أولئك أينما كان، وكلّ منهن تقول إنّها خليفة العظيمة ماتا هاري. لكن هكذا هي الحياة: لا أحد يتعلّم. فلاسفة الإغريق...

«أأضجرك، مادوموازيل؟».

هززت رأسي أن لا، وتابع قائلاً:

«دعك من فلاسفة الإغريق. ما قالوه من آلاف السنين لا يزال ينطبق اليوم. لا جديد إذن. في الواقع، أودّ أن أطرح عليك عرضاً».

قلت في سرّي: عرض آخر.

«هنا، لم يعد الناس يعاملونكِ بالاحترام الذي تستحقين، لذا قد تودّين أن تؤدّي عروضك في مكان يرونك فيه أعظم راقصات القرن. أنا أقصد برلين، المدينة التي أتيت منها».

كان العرض مغرياً.

«يمكنني أنّ أدعك تتواصل مع مديري.....».

غير أنّ الرجل الطارئ قاطعني قائلاً: «أفضّل التعاملَ معكِ شخصيًّا. وكيلُكِ من عِرق قلّما يروق لنا، فرنسيين وألماناً».

كان شأناً غريباً، هذا الحقد على شعب بسبب دينه فقط. رأيتُ ذلك يحدث لليهود، لكن قبل ذلك، في جاوة، سمعتُ عن الجيش الذي ينحر الناس لأنّهم كانوا يعبدون إلهاً لا وجه له، وأقسموا أنّ كتابهم المقدّس قد أُنزل من ملاك على نبيّ أعجز عن تذكّر اسمه هو أيضا. قدّم إليّ شخص ذات مرّة نسخة من هذا الكتاب، هو القرآن. لكن قُدّم إليّ لمجرّد

تقدير الخطّ العربي. مع ذلك، فإن زوجي حين عاد إلى المنزل، أخذ هديّتي منّي وأجبرني على حرقها.

«سأسدّدُ إليك، مع شركائي، مبلغًا سخيًّا»، قالها الرجل مُضيفًا، كاشفًا عن مبلغ من المال يستدعي الاهتمام. سألتُهُ عن قيمته بالفرنك وذُهلتُ لردّه. رغبتُ في الموافقة من فوري، غير أنّ السيّدة الرفيعة لا تتصرّف قبل أن تفكّر.

«هناك سوف يُعترَفُ بكِ كما تستحقين. لطالما كانت پاريس مُجحفة بحقّ أولادها، خصوصًا عندما يعتقون».

لم يعِ أنّه كان يُهينني، رغم أنّ هذا بالضبط ما كُنت أفكّر فيه وأنا أتمشّى. تذكّرت يومًا قضيته على الشاطئ برفقة أستروك، الذي لن يكون بوسعه مشاركتي في الاتفاق. مع ذلك، لا يمكنني فعل ما قد يجعل فريستي تفرّ.

قلت بجفاء: «سأفكّر في الأمر».

تبادلنا تحية الوداع، وأخبرني أين ينزل، قائلاً إنّه سينتظر ردّي في اليوم التالي، وهو اليوم الذي عليه أن يعود فيه إلى مدينته. غادرتُ المقهى وتوجّهت إلى مكتب أستروك. أعترف أنّ رؤية كلّ تلك الملصقات لأشخاص لا يبحثون إلّا عن الشهرة، قد أشعرتني بتعاسة شديدة. لكنّني أعجز عن العودة بالزمن.

استقبلني أستروك بلباقة المرات السابقة، كما لو أنّني أهمّ فنّانيه. أعدتُ سرد الحديث الذي دار بيني وبين الرجل، وقلتُ إنّه مهما حدث، فسوف يحصل على عمولته.

التعبير الوحيد الذي تفوّه به هو: «لكن الآن؟».

لم أفهم تمامًا. خِلتُ أنّه كان فظًا قليلًا معي.

«نعم، الآن. لا يزال لديّ الكثير، الكثير لأقدّمه على المسرح».

أومأ موافقًا، تمنّى لي السعادة، وقال إنّه لا يحتاج إلى عمولته مُلمحًا إلى أن الوقت ربما حان لكي أبدأ بادّخار المال، وأتوقّف عن التبذير بشراء الثياب.

وافقتُ وغادرت. فكّرتُ في أنه، بلا شكّ، لا يزال ممتعضًا جرّاء الإخفاق الذي مُنيت به افتتاحيّةُ مسرحه. لا بُدّ من أنّه كان على شفير الدمار. فعرضُ شيء مثل *The Rite of Spring*، وإعطاءُ الدور الأساسي لمُنتحل مثل نيجينسكي، كانا أشبه بأن تبني صرحًا عظيمًا على الرمل سرعان ما يهوي.

في اليوم التالي، اتّصلتُ بالأجنبي وأخبرته أنني قبلتُ عرضه، لكن ليس قبل أن أُعدّد سلسلةً من الطلبات السخيفة التي كان يُمكنني التخلّي عنها. لكن، لعجبي، نعتني بالباذخة، وقال إنّه يوافق على كلّ شيء؛ فهكذا هم الفنّانون الحقيقيّون.

من **كانت ماتا هاري** التي سافرت ذات يوم ماطر من إحدى محطات القطار الكثيرة في المدينة؟ كانت تجهل خطوتها التالية، أو ما كانت وجهتها تخبّئه لها، واثقة فحسب بأنها ذاهبة إلى بلد لغته شبيهة بلغة بلدها، وأنّها بالتالي لن تتوه يومًا.

كم كان عمري؟ عشرين؟ إحدى وعشرين؟ لا يمكن أن أكون قد تخطّيت الثانية والعشرين، غير أنّ جواز سَفري، سطّر ولادتي في ٧ أغسطس ١٨٧٦. وفيما كان القطار يتوجّه إلى برلين، كان التاريخ على الصحيفة ١١ يوليو ١٩١٤. لكن لم أشأ أن أُجري حسابا؛ كنت أكثر اهتمامًا بما حدث قبل أسبوعين: الهجوم الوحشي في ساراييفو الذي أودى بحياة الأرشيدوق فرديناند وزوجته الأنيقة، وذنبها الوحيد أنّها كانت إلى جانبه عندما قام مجنونٌ ثائرٌ على الحكم برشق الطلقات الناريّة.

في أيّ حال، شعرتُ بأنّني مختلفة تمامًا عن كلّ النسوة الأخريات في العربة. كُنت طائرًا غريبًا يعبر أرضًا عبثت بها نفْسُ الإنسانيّة الوضيعة. كنتُ بجعةً بين البطّ، رفضتُ أن تكبر خوفًا من المجهول. نظرتُ إلى الأزواج حولي، وشعرتُ بالهشاشة المطلقة؛ كُنت محاطة بكثير من الرجال، لكنني هأنذا، وحيدة، ليس لديَّ من يُمسك بيدي. نعم، لقد رفضتُ عروض زواج متعدّدة؛ فقد كانت لي تجربة مع الزواج في هذه الحياة، ليست سوى معاناة من أجل شخص لا يستحقّني، وبيع جسدي مقابل الأمان المنزلي المفترض. ولا أنوي تكرارها.

بدا الرجل الجالس إلى جانبي، فرانس أولاف، قَلِقًا وهو ينظر إلى

الخارج من النافذة. سألته عن الأمر، لكنّه لم يُجبني؛ الآن، بعد أن صرتُ تحت سيطرته، لم يعد في حاجة إلى الإجابة عن شيء. كلّ ما كان عليّ فعله هو أن أرقص وأرقص، حتّى ولو لم أعد بالمرونة التي كنت عليها من قبل. لكن، بقليل من التمرُّن، وبفضل شغفي بركوب الخيل، سأكون بكل تأكيد جاهزة مع حلول وقت العرض الأول. لم تعد فرنسا تُثير اهتمامي؛ أكلتني لحمًا ورمتني عِظامًا، مُؤْثِرةً الفنانين الروس، أو رُبَّما من وُلدوا في أماكن أخرى مثل البرتغال، والنروج، وإسبانيا، واتّبعوا الحيلة نفسها التي لجأتُ إليها لدى وصولي. أرِ الفرنسيين أمرًا غريبًا تعلّمتَه في موطنك وسيؤمنون به بالتأكيد، هم التوّاقون دومًا إلى كلّ جديد، وإنْ لبرهة وجيزة، لكنّهم مع ذلك سيؤمنون.

فيما كان القطارُ يهدر داخلاً ألمانيا، رأيتُ جنودًا يتقدّمون نحو الحدود الغربيّة. كانت المعارك تطّرد، تشترك فيها مركبات ودبّابات وبندقيات آليّة ضخمة ومدافع تجرّها أحصنة.

حاولتُ مجدّدًا أن أدخل في حديث: «ما الذي يجري؟».

لكن لم أحصل سوى على ردٍّ مُرمّز:

«مهما يكن ما يجري، أريد أن أعرف أن بإمكاننا الاعتماد على مساعدتك. الفنّانون مهمّون جدًّا الآن».

لا يمكن أن تكون الحرب مقصده، فما من خبر كان قد نُشر عنها. ذلك أن الصحف الفرنسيّة كانت أكثر انشغالاً بنقل ثرثرات الصالونات أو التذمّر في شأن طبّاخ قد خسر من فوره ميدالية حكوميّة. ومع أنّ بلدينا يتبادلان الكراهية، فإن هذا الأمر قد بدا طبيعيًّا.

عندما يصبح الوطن الأمر الأهمّ في العالم، يكون دومًا ثمّة ثمن يُدفع.

كان لإنجلترا إمبراطورية حيث الشمس لا تغيب، لكن سل أي شخص: أيّ مدينة تُفضّل أن ترى: لندن أم پاريس؟ لا أشكَ في أنّ الجواب سيكون المدينة التي يعبرها نهر السين، بكاتدرائيّاتها، ومحالّها، ومسارحها، ورسّاميها، وموسيقيّيها؛ ومَن يفوقون سواهم جُرأة سيذكرون ملاهيها المعروفة عالميًّا، مثل فولي بيرجير، ومولان روج، وليدو.

كان يكفيك أن تفكّر ما الأهمّ: برج بساعة مملّة ومَلكٌ لا يظهر في العلن أبدًا، أم هيكل فولاذيّ عملاق شكّل البرج العمودي الأكبر في العالم، الذي أخذت شهرته تتعاظم عبر أوروبا حاملاً اسم من أوجده، غوستاف إيفيل، أم القوس الضخم أرك دو تريونف أم الشانزيليزيه، التي قدّمت أفضل ما يُمكن شراؤه بالمال؟ وبالمقابل، كرهت إنجلترا فرنسا بكل ما أوتيت؛ لكن لـم يكن ذلك مدعاةً لأن تُجهّز سفنها الحربيّة.

فيما كان القطار يعبر الأراضي الألمانيّة، توجّه مزيد ومزيد من الجُند غربًا. حثثتُ فرانس مُجدّدًا، وحصلتُ على الجواب المرمّز ذاته.

قلت: «أنا على استعداد للمساعدة. لكن أنـى لي ذلك، إذا لـم أكن أعرف ما في الأمر حتّى؟».

للمرّة الأولى، سحب نظره عن النافذة والتفت إليّ.

«أنا أيضًا لا أعرف. كُلّفتُ جلبكِ إلى باريس لجعلكِ ترقصين لأرستقراطيّتنا، ولكي تذهبي ذات يوم أجهل تاريخه المحدّد، إلى وزارة الشؤون الخارجيّة. كان أحد المعجبين بك هناك من أعطاني المال لتوظيفك، رغم أنّك أحد أكثر الفنّانين تكلفةً بين من التقيتهم. آمل أن تؤتي هذه المجازفة أُكلها».

قبل أن أختم هذا الفصل من حياتي، أودّ، عزيزي الأستاذ كلونيه البغيض، أن أتحدّث قليلاً بعدُ عن نفسي، لأن ذلك هو ما دعاني إلى كتابة هذه الصفحات التي تحوّلت إلى يوميّات، وربّما خانتني ذاكرتي في أجزاء كثيرة منها.

أتخالُ حقًّا أنّهم، لو كانوا يملكون اختيار من يتجسّس لصالح ألمانيا، أو فرنسا، أو حتى روسيا، سيختارون شخصًا تقف له العامّة بالمرصاد على الدوام؟ ألا يبدو ذلك سخيفًا كلَّ السخافة في نظرك؟

عندما أقلّني القطار إلى برلين، خِلتُ أنّني تركتُ ماضيّ خلفي. ومع كلِّ كيلومتر قطعته، ابتعدتُ أكثر عن كلِّ ما كنت قد اختبرته. حتّى الذكريات الحلوة، كاكتشاف ما استطعت فعله على المسرح وخارجه، واللحظات التي مثّل فيها كلَّ شارع وكلَّ حفلة في پاريس حداثة عظيمة في نظري. الآن، أعي أنّني أعجزُ عن الهروب من ذاتي. عام ١٩١٤، بدل العودة إلى هولندا، كان من السهل جدًّا أن أبدّل اسمي ثانيةً، أن أجد من يعتني بما بقي من روحي، وأن أقصد أحد الأماكن الكثيرة في هذا العالم، حيث كنت مجهولة الوجه، لأبدأ من جديد.

لكنَّ ذلك عنى أن أعيش باقي حياتي منفصِمة: امرأة أمكن لها أن تكون كلَّ شيء، وامرأة لم تكن شيئًا قط، امرأة لن يكون لديها ولو قصّة واحدة تقصّها على أولادها وأحفادها. ومع أنّني في هذه اللحظة سجينة، فإنّ روحي لا تزال حرّة. وفي حين أن الجميع يتقاتلون ليروا من سينجو في خضَم كلِّ تلك الدماء جرّاء معركة لا نهاية لها، لم أعد في حاجة إلى القتال،

بل إلى مجرّد انتظار أشخاص لـم ألتقهم يومًا ليقرّروا من أنا. إذا وجدوني مذنبة، فستخرج الحقيقة يومًا ما، وسيلفّ العار رؤوسهم، ورؤوس أولادهم، وأحفادهم، وبلادهم.

أعتقدُ صدقًا أنّ الرئيسَ رجلٌ شريف.

وأعتقدُ أنَ أصدقائي، الذين طالما كانوا لطفاء ومستعدّين لمساعدتي عندما كنت أملك كلَ شيء، لا يزالون إلى جانبي الآن، وأنا لا أملك أيّ شيء. بزغ الفجر وأصبح بإمكاني سماع العصافير والضجة القادمة من المطبخ في الأسفل. باقي السجينات نائمات، بعضهن خائفات، وبعضهن استسلمن لأقدارهن. نِمتُ حتى طلوع أول شعاع شمس. وشعاع الشمس هذا، مع أنَه لم يدخل زنزانتي، فقد أظهر قوّته في السماء الفضيّة التي يُمكنني أن أراها من هنا، وجلب لي الأمل بالعدالة.

لا أدري لـما جعلتني الحياة أخوض غمار أمورٍ كثيرة في وقت قصير.

لترى إن كنتُ أستطيع مجابهة الأوقات الصعاب.

لترى معدني.

لتمدّني بالتجربة.

لكن كان ثمة طرق أخرى، سبل أخرى لتحقيق ذلك. ما كان من داعٍ لها أن تُغرقني في ظلمات روحي، أو تجعلني أعبر هذه الغابة الطافحة بالذئاب وسواها من الحيوانات البريّة، من دون وجود يد واحدة تُرشدني.

أعرفُ أمرا واحدا، هو أنّ هذه الغابة، مهما تبدُ مخيفة، فإن لها نهاية، وأنا أنوي بلوغ جهّتها الأخرى. سأكون مُحسنة في انتصاري، ولن أتّهم من كذبوا كثيرا في شأني.

أتدري ماذا سأفعل الآن، قبل أن أسمع وقع خطوات في الرواق ووصول فطوري؟ سوف أرقص. سوف أتذكَر كلَ نوتة موسيقيّة، وسوف أحرِّك جسمي على الإيقاع، لأنّ الرقص يُظهر لي من أنا. أنا: امرأة حرّة!

فالحرية هي مسعاي الدائم. لم أسعَ إلى الحب، مع أنّه قد جاء ورحل. وبسبب الحب فعلتُ أمورًا، أمورًا لم يكن يجدر بي فعلها، وسافرتُ إلى أماكن حيث كان الناس يتربّصون لي.

لكنّني لا أريد أن أستعجل قصّتي؛ الحياة تمضي بسرعة فائقة، وأنا قاسيتُ لمواكبتها منذ ذاك الصباح الذي وصلتُ فيه إلى برلين.

طُوِّقَ المسرح. وقوطِعَ العرض في لحظةِ تركيزٍ عظيم، لحظة كنتُ أُقدّم أفضل ما عندي، رغم أنني لم أكن أتمرَّن. اعتلى الجنود الألمان المنصّة، وأعلنوا إلغاء كل العروض في مختلف قاعات الحفلات حتّى إشعار آخر.

تلا أحدهم بيانًا علانية:

«هذه الكلمات عن لسان قيصرنا: «إنّنا نحيا لحظةً مظلمة من تاريخ بلادنا المطوّقة بالأعداء. سيكون علينا أن نستلّ سيوفنا. وكلّي أمل أن نُجيد استعمالها مشرّفين».

لـم أستطع فهم شيء. توجّهتُ إلى غرفة تبديل الملابس، أسدلتُ ردائي فوق الثياب القليلة التي ارتديت، ورأيتُ فرانس يلج من الباب لاهثًا.

«عليك الرحيل وإلاّ فسوف يتمّ توقيفك».

«أرحل؟ إلى أين أرحل؟ وبعد، ألستُ على موعدٍ صباح الغد مع شخص من وزارة الشؤون الخارجيّة الألمانية؟».

قال من دون أن يفعل ما يخفي قلقه: «أُلغِي كلّ شيء. محظوظة أنت أنّك مواطنة من بلد مُحايد، وإليه ينبغي لك العودة الآن».

خطر لي كلّ شيء في الحياة إلّا العودة إلى موطني، المكان الوحيد الذي كانت مغادرته شاقّة جدًا.

تناول فرانس من جيبه لفافة فيها ماركات ألمانية، ودسّها في يدي.

«انسي أمر العقد الذي وقّعناه لستّة شهور مع مسرح ميترو پـول. كان هذا كلّ المال الذي استطعتُ جمعه مـمّا وُجد في خزنة المسرح. ارحلي من فورك. سأهتمّ لاحقًا بإرسال ثيابك إليك إن بقيتُ حيًّا. وعلى عكس ما حدث معك، استدعتني القوات المسلّحة للتوّ».

تضاءل فهمي أكثر.

«لقد جُنّ العالم»، قـالها، متنقّلاً من جنب إلى جنب.

«إنّ موت نسيب، مهما يكن قريبا، لا يُعدّ مسوّغا كافيًا لإرسال الناس إلى هلاكهم. غير أنّ الجنرالات يحكمون العالم، ويريدون أن يستكملوا ما لـم ننجزه يوم جلبت فرنسا العار على نفسها بهزيمتها منذ أكثر من اربعين سنة. يخالون أنّهم لا يزالون يعيشون في ذاك الزمن، وقرّروا فيما بينهم الثأر لمهانتهم. يُريدون أن يُثبطوا عزيمة فرنسا. وثـمة ما يشير ، مع كلّ يوم يمرّ، إلى أنّهم يزدادون شدّة. لهذا يحدث ما يحدث: اقطع رأس الأفعى قبل أن تستفحل وتخنقنا».

«أتقول إنّنا مقبلون على حرب؟ ألهذا السبب سافر جنود كثيرون منذ أسبوع؟».

«بالضبط. أمست لعبة الشطرنج أكثر تعقيدًا، لأنّ كلّ الحكّام ملزمون بتحالفات. يصعب عليّ تفسير الأمر. لكن، الآن، ونحن نتحادث، تغزو جيوشنا بلجيكا، وسبق للوكسمبورغ أن استسلمت. وهم الآن متوجّهون نحو المناطق الصناعيّة في فرنسا بسبع فرق مُدجّجة بالسلاح. يبدو أننا في الوقت الذي كان فيه الفرنسيون يستمتعون بالحياة، كنّا نبحث عن ذريعة. ويوم كان الفرنسيون يبنون برج إيفيل، كان رجالنا يستثمرون في المدافع. لا أعتقد أنّ الأمر سيطول كثيرًا؛ فبعد خسارة بعض

الأرواح من الطرفين، يحلّ السلام على الدوام. لكن حتّى ذلك الحين، عليك اللجوء إلى موطنك، وانتظري أن يهدأ كلّ شيء».

فاجأتني كلمات فرانس؛ بدا حرصه على سلامتي صادقًا. دنوت منه ولامست وجهه.

«لا تقلق، سيكون كلّ شيء بخير».

رد وهو يدفع يدي عنه قائلًا: «لن يكون كلّ شيء بخير. وأكثر ما أردته فُقد إلى الأبد».

ثمّ عاد ليمسك باليد التي دفعها بعنف.

«عندما كنت أصغر سنًا، دفعني أبي وأمّي إلى تعلُّم العزف على البيانو. لطالما كرهته. وما إن غادرت المنزل حتّى نسيتُ كلّ شيء باستثناء أمر واحد: أنّ أجمل الأنغام في العالم تتحوّل أمرًا فظيعًا، إذا كانت الأوتار غير مدوزنة.

ذات يوم، في ڤيينا، عندما كنت أؤدّي الخدمة العسكرية الإلزاميّة، مُنحنا يومين من الراحة والنقاهة. رأيتُ مُلصقًا لفتاة، وحتّى ولو لم أكن قد رأيتها قط شخصيًا، أيقظتْ فيّ شعورًا لا يجدر بأيّ رجل أن يشعر به يومًا: الحبّ من النظرة الأولى. تلك الفتاة كانت أنتِ. عندما دخلتُ المسرح المكتظّ وابتعتُ تذكرة، التذكرة التي كلّفت ما يفوق ما كنت أجنيه في أسبوع كامل. رأيتُ أنّ كلّ ما كان غير مدوزن في داخلي، من علاقتي بوالديّ، إلى الجيش، إلى بلادي، وصولًا إلى العالم، تناغمَ فجأة لمجرّد مشاهدة هذه الفتاة ترقص. لم يكن السبب الموسيقا الغريبة، أو الشبق أكان على المنصّة أم في الجمهور، بل كانت الفتاة».

عرفتُ من كان يقصد، لكنّني لم أشأ مقاطعته.

«كان عليّ أن أخبرك بكلّ هذا من قبل، لكنّني خلتُ أنّني أملك الوقت. اليوم، أنا مدير مسرح ناجح، وربما حدث ذلك بوحي من كلّ ما شاهدته تلك الليلة في ڤيينا. في الغد، سوف أرفع تقريري إلى النقيب المسؤول عن وحدتي. قصدتُ باريس غير مرّة لمشاهدة عروضك. رأيتُ أنّك مهما فعلتِ، فإن ماتا هاري سوف تفقد مكانتها لصالح زمرة من الناس لم يستحقّوا حتّى أن يلقّبوا بـ «راقصين» أو «فنّانين». قرّرتُ أن آتي بك إلى مكان يقدّر فيه الناسُ عملك؛ وفعلت كلّ ذلك بداعي الحبّ، الحبّ فقط... حبٌّ غير متبادل، لكن ما الهمّ؟ ما يهمّ أن تكون بالقرب ممن تُحبّ. وهذا كان هدفي.

ذات يوم، قبل أن أتمكّن من استجماع شجاعتي لمقاربتك في پاريس، اتّصل بي مسؤول من سفارة. قال إنّك كُنت ترافقين نائبا لا شك في أنه، بحسب استخباراتنا، سوف يُصبح وزير الحرب التالي».

«لكنّ هذا كلّه قد انتهى الآن».

«تفيد استخباراتنا أنه سيُعاود تبوُّء المنصب الذي شغله من قبل. سبق لي أن التقيتُ ذاك المسؤول مرّات عدّة، كنّا نديميْ شراب، وكنا نرتاد حياة الليل في پاريس. في إحدى تلك الليالي، أسرفتُ قليلاً في الشرب، وتحدّثتُ عنك لساعات متواصلة. عرف أنّني كُنت مغرمًا، وطلب إليّ أن آتي بك إلى هنا، لأنّنا كنّا سنحتاج إلى خدماتك في القريب العاجل».

«خدماتي؟».

«كشخص لديه إمكانية الوصول إلى قلب الحكومة».

كانت الكلمة التي حاول قولها، لكنّه لم يتحلَ بالشجاعة للنطق بها هي: «جاسوسة». وهذا أمر لن أفعله أبدا في حياتي بأسرها. وأنا واثقة بأنّك تذكر، يا سيد كلونيه المحترم، قولي الأمر نفسه خلال تلك المحاكمة المهزلة: «عاهرة، نعم. جاسوسة، أبدًا!».

«لهذا، عليكِ مغادرة هذا المسرح من فورك، والتوجّه مباشرةً إلى هولندا. ما أعطيتكِ من مال أكثر من كافٍ. سرعان ما ستُمسي هذه الرحلة مستحيلة. والأفظع من ذلك، إذا كانت لا تزال ممكنة، هذا يعني أنّنا نكون قد تمكّنا من دسّ أحدهم في پاريس».

انتابني ذعر عظيم، لكن لم يكن كافيًا لأقبّله، وأشكره على ما كان يفعله من أجلي.

كُنت سأكذب وأقول له إنّني سأكون بانتظاره بعد انتهاء الحرب. غير أنّ للصراحة طريقة في تبديد الأكاذيب.

لا يجدر على الإطلاق أن تبقى البيانوهات من دون دوزنة. الخطيئة الحقيقيّة مختلفة عمّا علّمونا إياه؛ الخطيئة الحقيقيّة هي العيش بمنأى عن التناغم المطلق. وهذا أقوى من الحقائق والأكاذيب التي نتفوّه بها كلّ يوم. التفتُّ إليه، وطلبتُ بلطف أن يغادر، لأنّه كان عليَ أن أرتدي ملابسي. وقلت:

«لم يوجد الله الخطيئة، نحن من أوجدها، عندما حاولنا تحويل ما كان مُحتّمًا إلى شيء ذاتي. كففنا عن رؤية الكلّ لرؤية جزء فحسب. وذاك الجزء محملَ بالذنوب، والأحكام، والخير مقابل الشرّ، وكلّ طرف يعتقد أنّه المحقّ».

تفاجأتُ من كلماتي. لعلَّ الخوف قد أثّر بي أكثر ممّا ظننت. غير أنّ ذهني كان شاردًا إلى البعيد.

«لديَّ صديق هو القنصل الألماني في بلدك. يُمكنه مساعدتك على إعادة بناء حياتك. لكن حذار: شأنه شأني، من المحتمل جدًّا أن يحاول جرّك إلى مساعدتنا في جهودنا المبذولة في الحرب».

مرّة أخرى، تحاشى كلمة «جاسوسة». كنت امرأة لديها ما يكفي من الخبرة للتفلّت من أشراك مماثلة. ولكم فعلت ذلك في علاقاتي مع الرجال.

أرشدني إلى الباب، واصطحبني إلى محطّة القطار. في طريقنا، مررنا بتظاهرة ضخمة أمام قصر القيصر، كان فيها رجال من كلّ الأعمار، يهتفون بقبضاتهم المشدودة المرفوعة في الهواء:

«ألمانيا فوق كلّ شيء!».

أسرع فرانس بالسيّارة.

«إذا أوقفنا أحدٌ، الزمي الصمت وسأهتمّ بالحديث. لكن، إن سُئلتِ شيئًا، قولي «نعم» أو «لا» فقط. اتّخذي هيئة الضجِرة ولا تتجرّأي على النطق بلسان العدو. عندما تبلغين المحطة، لا تُبدي أيّ خوف مهما تكن الظروف؛ استمرّي في كونك أنت».

«كوني أنا؟ أنـى لي أن أكون أنا ما دمت لا أعرف من أنا بالضبط؟ الراقصة التي دوّخت أوروبا؟ الزوجة التي أذلّت نفسها في الجزر الشرقية الهندية الهولندية؟ عشيقة الرجال النافذين؟ المرأة التي لقّبتها الصحف بـ «الفنّانة الفاجرة» مع أنّها، قُبيل ذاك الأوان، قدّرتها وأجلّتها؟

بلغنا المحطّة. طبع فرانس قبلة لبقة على يدي، وطلب إليَّ أن أركب

أوّل قطار مُقبل. كانت المرّة الأولى في حياتي التي أسافر فيها من دون أمتعة؛ حتى عندما وصلتُ إلى پاريس، كنت أحمل شيئًا ما.

منحني ذلك، مهما يبدُ متناقضًا، إحساسًا عارمًا بالحريّة. قريبًا ستكون ملابسي بحوزتي، لكن في تلك الأثناء، كنتُ أؤدّي دورًا فرضته عليَ الحياة: دور امرأة لا تملك شيئًا بالمطلق، أميرة بعيدة عن قصرها، وعزاؤها الوحيد أنّها قريبًا سترجع إليه.

بعد أن ابتعتُ بطاقتي إلى أمستردام، كان أمامي بضع ساعات لانطلاق القطار. ورغم محاولتي أن يكون ظهوري مموّهًا، لاحظتُ أنَ الجميع متوجّهون بأنظارهم إليّ. لم تكن نظراتهم مألوفة تنم عن إعجاب أو حسد، بل عن فضول. كانت أرصفة المحطّة تعجَ بالناس، وخلافًا لي. بدا الجميع كأنهم يحملون منازل بأكملها في حقائب وصرر وأكياس سجاد. سمعتُ مصادفة والدة تقول لابنتها ما قاله لي فرانس منذ قليل: «إذا ظهر حارس، تكلّمي بالألمانيّة».

هم لم يكونوا تحديدًا أشخاصًا يفكّرون في التوجّه إلى الريف، بل «جواسيس» محتملون، لاجئون يعودون إلى مواطنهم.

قرّرتُ ألاّ أتكلّم مع أحد، متحاشيةً أن يلتقي نظري نظر سواي، ومع هذا، دنا منّي رجل كهل، وسأل: «ألن ترقصي معنا؟».

هل كشف هويّتي؟

«نحن هنا، عند نهاية الرصيف. تعالي!».

تبعته من دون تفكير، مدركة أنّني سأكون محميّة أكثر إذا خالطتُ غرباء. سرعان ما ألفيتُ نفسي محاطةً بالغجر. وبإحساس غريزي، شددتُ

حقيبة يدي إلى جسمي. كان ثمّة خوفٌ في عيونهم، ولكنْ بدا أنّهم لم يستسلموا له، كما لو أنّهم ألِفوا ضرورة تغيير تعابيرهم. كانوا قد شكّلوا حلقة، مُصفقين بأيديهم، ورقصت ثلاث نسوة في الوسط.

سأل الرجل الذي أحضرني إلى هنا: «أتودّين الرقص أيضًا؟».

قلتُ إنّني لم أرقص في حياتي. أصرَ، لكنني أوضحت له أن لي رغبة في المحاولة، لكنّ فستاني يحول دون تحرّكي بحريّة. بدا راضيًا، أخذ يصفّق، وطلب إليّ أن أفعل مثله.

قال لي: «نحن غجر من البلقان. حسبما سمعت، هناك بدأت الحرب. علينا مغادرة هذا المكان بأسرع ما يمكن».

كنت سأقول لا، إن الحرب لم تندلع في البلقان، وإنّ الأمر وما فيه مجرّد ذريعة لإشعال فتيل وضع كان يبدو جاهزا للانفجار منذ سنوات طوال. لكن كان من الأولى بي أن أُطبق فمي كما أوصاني فرانس.

«...غير أن هذه الحرب ستعرف نهاية» قالت امرأة سوداء الشعر والعينين، وقد بدت أجمل ممّا توحي به ثيابها البسيطة. وتابعت: «كلّ الحروب تعرف نهاية، وسيستفيد كثر على حساب الموتى. وفي هذه الأثناء، سنواصل الارتحال بعيدا عن النزاعات، فيما تواصل النزاعات اللحاق بنا».

على مقربة، كان الأولاد يلعبون، كما لو أنّ السفر كان دوما مغامرة، وأن لا شيء مما يحدث مهمًا. كانت التنانين في نظرهم تخوض معركة متواصلة، والفرسان يتقاتلون وهم يرتدون دروعا حديديّة، متسلّحين برماح ضخمة. كان عالم لا بُدّ من أن يطارد فيه الفتية بعضهم بعضًا، وإلاّ لكان مكانا مُملاًّ جدًا.

توجّهت المرأة التي كانت قد كلّمتني نحوهم، وطلبت إليهم أن يخفّفوا ضجيجهم، إذ لا يجدر بهم أن يلفتوا الأنظار. لكن لم يولِها أيّ منهم انتباهًا.

أنشدَ متسوّلٌ بدا أنه يعرف كلّ المارّة على الشارع الرئيسي:

عن الحريّة قد يغنّي الطائرُ في القفص، لكنّه سيظلّ يعيش في الأَسر.

وافقَتْ «تيا» أن تحيا في قفصٍ، ثـمّ أرادت أن تهربَ،

لكن لـم يساعدْها أحدٌ، فما من أحد فهمَ.

لـم أملك أيّ فكرة من كانت تيا، كلّ ما عرفته أن عليّ بلوغ القنصليّة بأسرع ما يمكن لأعرّف كارل كرامر بنفسي، وهو الشخص الوحيد الذي كنت أعرفه في لاهاي. كنتُ قد قضيت ليلتي في فندق درجة ثالثة، خشية أن يتعرّفني أحدٌ ويصرفني. عجّت لاهاي بالناس الذين بدوا أنّهم يحيون على كوكب آخر. من الواضح أنّ أنباء الحرب لـم تكن قد بلغت المدينة، فقد علقت عند الحدود مع آلاف اللاجئين الآخرين، من فارّين من الجيش، ومواطنين فرنسيين متخوّفين من الثأر، وبلجيكيين هاربين من جبهة القتال. كلّهم ينتظرون المستحيل على ما يبدو.

للمرّة الأولى أشعر بالسرور، لأنّني ولدتُ في لوواردن، ولأنني أحمل جواز سفر هولنديًّا. كان جواز سفري الهولندي خلاصي. فيما كنت أنتظر أن أُفتَّش، وأنا مسرورة أنّني لـم أحمل أيّ حقيبة، رمى لي بمظروف رجل لـم أتمكّن من إمعان النظر فيه. كان مُوجَّهًا إلى أحد، غير أنّ الضابط المسؤول عن الحدود رأى ما جرى. فتح الرسالة، ثـمّ طواها ومدّ بها إليّ من دون تعليق. بُعيد ذلك، نادى زميله الألماني وأشار إلى الرجل، الذي كان قد اختفى في الظلمة:

«فارّ من الجيش».

جرى الضابط الألماني خلفه، كانت الحرب قد بدأت لتوّها، وبدأ الناس منذ الآن يُدبرون. رأيته يرفع بندقيّته ويصوّبها نحو الهارب. أشحتُ بنظري عندما أطلق. أريد أن أعيش باقي حياتي وإحساسي يقول إنه تمكّن من الهرب.

كانت الرسالة موجّهة إلى امرأة، وخِلتُ أنّه كان يأمل أن أضعها في البريد لدى وصولي إلى لاهاي.

«سوف أرحل من هنا، مهما يكن الثمن- حتّى ولو كان حياتي- فقد أُردى قتيلا لأنني فارٌّ من الجيش إذا ضبطوني وأنا في طريقي. يبدو أنّ الحرب قد بدأت الآن؛ ظهرت أولى القوّات الفرنسيّة في الطرف الآخر، ومُسحت على الفور برمية مدفعية واحدة أمرني النقيب بتنفيذها. من المفترض أن هذا كلّه سينتهي قريبًا، ومع هذا، يداي ملطّختان بالدم، وأعجزُ عن تكرار فعلتي؛ لا يُمكنني أن أسير مع فرقتي إلى پاريس، كما يذكر الكلّ بحماسة. لا يُمكنني أن أحتفي بالنصر الذي ينتظرنا، لأنّ هذا كلّه يبدو جنونيًا في نظري. كلّما فكّرتُ، قلّ استيعابي لما يحدث. لا أحد يقول شيئًا، لا أحد يعرف الجواب.

لا تزال لدينا خدمة بريدٍ هنا، رغم صعوبة تصديق ذلك. كان بإمكاني استعمالها، لكن بحسب ما سمعت، فإن كلّ المراسلات تخضع للرقابة قبل إرسالها. لا أكتب هذه الرسالة لأُعبّر عن مدى حبّي لك، فأنت تعرفين ذلك. ولا لكي أتحدّث عن بسالة جنودنا، وهو واقع تعلمه كل ألمانيا. إنني أكتب رسالتي هذه وصيّة أخيرة. أكتب في ظلّ الشجرة نفسها التي، منذ ستة أشهر، طلبتُ فيها يدك ووافقت. وضعنا خططا، أسهم والداك في تأمين جهازك، وبحثتُ عن منزل بغرفة إضافية، نخصّصها

لابننا البكر الذي طال انتظاره. والآن، أنا في المكان نفسه بعد ثلاثة أيام قضيتها في حفر الخنادق، مُغطى بالوحل من رأسي إلى قدمي، وبدم خمسة أشخاص أو ستة لم يسبق لي أن رأيتهم، ولم يسبق لهم أن مسّوني بسوء. يقولون إنّها «مجرّد حرب»، لصون كرامتنا، وكأنّ جبهة القتال المكان المناسب لذلك.

كلّما شاهدتُ الطلقات الأولى، وشممتُ دم الضحايا الأُول، زاد اقتناعي بأنّ كرامة الإنسان لا يُمكن أن تتآخى مع هذه الأفعال. عليّ أن أختم رسالتي الآن، فقد استدعوني. لكن، ما إن تغيب الشمس، حتى أرحل إما إلى هولندا وإما إلى حتفي.

أعتقد أنّني بمرور كلّ يوم، لن أعود قادرًا على وصف ما يحدث. لذا، أفضّل أن أرحل الليلة وأجد شخصًا طيبًا ليبعث بهذا المظروف عني.

كلّ الحب،

يورن».

حالما وصلتُ إلى أمستردام، أرادت لي الآلهة أن ألتقي على رصيف المحطّة أحد مُصفّفي شعري في پاريس، مُرتديًا ثياب الحرب. اشتُهر بأسلوبه في صبغ شعر النسوة بالحنّاء، حيث كان اللون يظهر دومًا طبيعيًا وجميلاً للعين.

«ڤان ستاين!».

التفتَ إلى مصدر زعقتي؛ أصابه الذهول. ومن فوره، استدار وراح يبتعد.

«موريس، هذه أنا، ماتا هاري!».

لكنّه استمرّ في الابتعاد هَرَعًا. ثارت ثائرتي. هذا الرجل الذي كنتُ

أدفع له آلاف الفرنكات يهرب الآن منّي؟ رُحتُ أمشي نحوه، فسرّع خطاه. سرَعتُ خطاي، فراح يجري، إلى أن أقدم رجل كان يراقب المشهد كلّه، على إمساكه من ذراعه وقال: «تلك المرأة تناديك!».

استسلم لمصيره. توقّف وانتظر اقترابي. وبصوت خفيض، طلب إليّ ألاّ أذكر اسمه مجدّدًا.

«ماذا تفعل هنا؟».

أخبرني عندئذٍ أنّه، في الأيام الأولى بعد اندلاع الحرب، قرّر أن ينخرط في الجيش للدفاع عن وطنه بلجيكا، بعد أن جاشت فيه الروح الوطنيّة. لكنه، حالما سمع فرقعة أولى المدافع، عبَر إلى هولندا، وطلب اللجوء. اصطنعتُ شيئًا من الاحتقار.

«أريدكَ أن تصفّف لي شعري».

في الواقع، أردتُ يائسة أن أستعيد بعضا من اعتزازي بنفسي إلى حين وصول أمتعتي. كان المال الذي أعطاني إياه فرانس كافيًا لسدّ حاجتي شهرًا أو اثنين، أكون في خلالهما قد فكرّت في وسيلة أعود بها إلى فرنسا. سألتُ: أين يُمكنني المبيت مؤقّتًا، لا سيما وأن لديّ صديقًا واحدًا سوف يساعدني إلى أن تهدأ الأمور؟

بعد سنة، جعلتُ من لاهاي مستقرًا لي بفضل صداقتي لصيرفيّ التقيته في پاريس. استأجر لي منزلاً، حيث كنّا نلتقي. في وقت من الأوقات، توقّف عن دفع بدل الإيجار، من دون أن يُفصح عن السبب تحديدًا، لكن ربما فعل ذلك لأنّه عدّ ذوقي مُغرقًا في البذخ والتبذير، كما قال لي مرّة. أجبته قائلة: «إن التبذير يتمثّل في رجل يكبرني عشر سنواتٍ، ويريد استعادة شبابه بين ساقيَ امرأة».

وجد في ذلك إهانة، وهذا ما قصدته، وطلب إليّ أن أخلي المنزل. كانت لاهاي بالأساس مكانًا مُرعبًا عندما زرتها في صغري. الآن - مع التقنين، وغياب حياة الليل جرّاء الحرب المستعرة في البلدان المجاورة، تحوّلت دار مُسنّين، وكْرَ جواسيس، حانة شرب هائلة يؤمّها الجرحى والفارّون من الجيش لإغراق أحزانهم، والانخراط في شجارات غالبًا ما تنتهي بالموت. حاولتُ تنظيم سلسلة من العروض المسرحيّة مُستندة إلى الرقصات المصريّة القديمة، وهو أمر أمكنني فعله بسهولة، ذلك أنّ الجميع يجهلون ما كان عليه الرقص في مصر القديمة، ولا يُمكن للنقاد دحضه. لكنّ المسارح شهدت قلّة من الجماهير، ولم يُقبل أيّ منها على عرضي.

بدت پاريس حلمًا بعيد المنال. لكنّها كانت منارتي الوحيدة في حياتي، المدينة الوحيدة التي شعرتُ فيها بأنّني إنسانة، وكلّ ما يحمله ذلك من معانٍ. هناك أتيح لي ما كان مُباحًا وما كان معصية. كانت الغيوم مختلفة، والناس يتبخترون بأناقة، والأحاديث أكثر تشويقا ألف مرّة من النقاشات المملّة في صالونات الشعر في لاهاي، حيث الناس لا يكادون

يتكلّمون، خشية أن يسمعهم أحد، ويقدّم بهم لاحقا إخباريّة إلى الشرطة بجرم تشويه السمعة وتقويض الصورة المحايدة للبلد. لفترة، حاولتُ أن أستخبر عن موريس ڤان ستاين. سألتُ عن أحواله بضعًا من صديقات المدرسة ممن كنّ قد انتقلن للعيش في أمستردام. غير أنّه بدا وكأنّه تبخّر عن وجه الأرض بأساليبه في الحنّاء، ولكنته الفرنسيّة السخيفة المصطنعة.

كان مَنْفذي الوحيد الآن حثّ الألمان على أخذي إلى فرنسا. وعليه قرّرت أن ألتقي أحد أصدقاء فرانس، على أن أبعث إليه في البداية رسالة أشرح فيها من أكون، وأطلب إليه مساعدتي على تحقيق حلمي في العودة إلى المدينة التي سلختُ جزءًا كبيرًا من حياتي فيها. كنتُ قد خسرتُ الوزن الذي ازددته في تلك الفترة الطويلة والحالكة؛ لم تصل ملابسي إلى هولندا قط. وإذا افترضت جدلًا أنها وصلت، فإنني سأتجاهلها. بحسب المجلات، تغيّرت الموضة، لذا كان «المُحسِن» إليّ قد ابتاع لي ملابس جديدة. لم تكن على قدر الجودة الپاريسيّة طبعًا، لكن على الأقلّ لم تكن الدرزات تتملّص مع أوّل حركة.

عندما دخلتُ المكتب، رأيتُ رجلاً مُحاطا بكلّ أنواع الترف التي حُرم منها الهولنديون: السجائر والسيجار المُستوردة، المشروبات من كلّ أرجاء أوروبا، الأجبان واللحوم الباردة التي كانت تُقنَن في أسواق المدينة. وخلف مكتب من خشب الماهوغوني المزخرف بزخارف ذهبيّة، جلس رجل متأنَق، وأكثر تهذيبًا من أيّ ألماني التقيته في حياتي. تبادلنا المجاملات وسألني عن سبب تأخُّر زيارتي له.

«لم أعرف أنّكَ كنت تتوقّع مجيئي. فرانس.....»

«قال لي إنك كنتِ ستأتين إليّ منذ سنة».

نهض وسألني عمًا أرغب في شربه. اخترت الكحول باليانسون، الذي قدّمه القنصل بنفسه في كؤوس من الكريستال البوهيمي.

«للأسف، لم يعد فرانس بيننا؛ مات خلال هجوم جبان على فرنسا».

بحسب معرفتي الضئيلة، نفّذ الألمان هجومهم الصاعق في أغسطس ١٩١٤ على الحدود البلجيكيّة. وفكرة بلوغ پاريس بسرعة، كما جاء في الرسالة التي ائتُمنت عليها، أمست الآن حلمًا بعيد المنال.

«كنّا قد خطّطنا لكل شيء أفضل تخطيط! أأُضجرك بهذا الكلام؟».

طلبت إليه أن يتابع. نعم، كنت ضجرة، لكنّني أردت الذهاب إلى پاريس بأسرع ما يمكن، وكنت أعرف أنّني محتاجة إلى مساعدته. منذ أن وصلتُ إلى لاهاي، اضطررتُ إلى تعلّم أمر كان مُستعصيا عليّ، هو فنّ الصبر.

لاحظ القنصل آمارات الضجر عليَ، فحاول اقتضاب الحديث ما أمكن حول ما جرى. كانوا قد أرسلوا سبع فرق إلى الغرب، وتقدَموا بسرعة نحو الأراضي الفرنسيّة، حتّى وصلوا إلى بعد ٥٠ كيلومترًا من پاريس، غير أنّ الجنرالات لم يعرفوا كيف كانت القيادة العامّة قد نظَمت الهجوم الذي أدّى إلى انسحابهم إلى حيث هم الآن، بالقرب من أراضٍ تقع على الحدود مع بلجيكا. على مدى سنة عمليًا، لم يتمكّنوا من التحرّك من دون أن يهلك الجنود في أيٍّ من الجبهتين. لكن لم يستسلم أحد.

«عندما تنتهي هذه الحرب، أنا واثق بأنّ كلّ قرية في فرنسا، مهما تكن صغيرة، ستنصب تمثالاً لموتاها. يواظبون على إرسال مزيد ومزيد من الناس ليُقطَعوا أنصافًا بمدافعنا».

صُدِمتُ لعبارة «ليُقطعوا أنصافًا» ولاحظَ سحنة الاشمئزاز عليّ.

«فلنقل إن نهاية هذا الكابوس كلَما كانت أسرع، كان ذلك أفضل. حتّى ولو كانت إنجلترا في صفّهم، ومع أنّ حلفاءنا الخُرق النمساويين منشغلون الآن بإيقاف تقدّم الروس، فإننا سوف ننتصر في النهاية. ولهذا الغرض، نحتاج إلى مساعدتك».

مساعدتي لوضع حدّ لحرب، بحسب ما قرأتُ أو سمعتُ في دعوات العشاء القليلة التي لبّيتها في لاهاي، أزهقت فيها آلاف الأرواح؟ إلامَ كان يُلمح؟

فجأة، تذكَرت تحذير فرانس الذي دوّى في رأسي: «لا تقبلي أيَّ عرض قد يقترحه كرامر عليك».

ما أمكن لحياتي أن تكون أسوأ. كنت مُستميتة للحصول على المال،

فلا مبيت عندي وديوني تتراكم. عرفتُ ما كان سيعرضه عليّ، لكنّني كنت واثقة بأنّني سأجد سبيلاً للتفلّت من الشّرك. فقد سبق لي أن تفلّتُّ من أشراك كثيرة في حياتي.

طلبتُ إليه أن يدخل في صلب الموضوع مباشرة. تصلّب قوام كارل كرامر، وتغيّرت نبرته بغتة. لم أعد الضيفة التي عاملها بشيء من اللياقة قبل طرح موضوعات مهمّة؛ بدأ يعاملني كمرؤوسة له.

«أفهم من رسالتك أنّك ترغبين في الذهاب إلى فرنسا. يُمكنني تدبير وصولك إلى هناك. ويُمكنني أيضًا أن أستحصل لك على بدل مقداره ٢٠ ألف فرنك».

أجبتُ: «لا يكفي».

«سيُعدّل المبلغ عندما تظهر جودة عملك، وتتمّين فترة الاختبار. لا تقلقي؛ جيوبنا مبطّنة بالمال من أجل هذا الغرض. في المقابل، أحتاج إلى أيّ نوع من المعلومات التي يُمكنك الاستحصال عليها من الأوساط التي تُخالطينها».

«التي كنت أخالطها» قلتُ لنفسي. لا أدري كيف سأُستقبل في فرنسا بعد سنة ونصف، خصوصًا وأنّ آخر الأخبار لدى الكلّ عنّي هي سفري إلى ألمانيا لأداء سلسلة من العروض.

تناول كرامر ثلاث قوارير صغيرة من الدُرج ومدّ بها إليّ.

«هذا حبر لامرئي. متى استحصلتِ على الأخبار، استعمليه لكتابتها، وابعثي بها إلى النقيب هوفمان، المسؤول عن قضيّتك. لا توقّعي اسمك أبدًا».

تناول لائحة، مسحها بنظره من أعلى إلى أسفل، ووضع علامة بمحاذاة شيء ما.

«سيكون اسمك المشفّر H21. تذكّري هذا: ستوقّعين على الدوام بـ «H21»».

لم أكن متأكّدة من أن الاسم كان مضحكًا أو خطيرًا أو سخيفًا. كان بإمكانهم اختيار اسم أفضل على الأقل، وليس اختصارًا كان له وقع رقم مقعد في قطار.

وتناول من الدُرج الآخر كدسة أوراق نقدية مقدارها عشرون ألف فرنك، وناولني إياها.

«سيهتمّ مرؤوسيّ، في الغرفة الأماميّة، بالتفاصيل، كجواز السفر وضمانات سلامة المرور. وكما قد تتصوّرين، فإن من المستحيل اجتياز حدود ما خلال حرب. لذا، يكون البديل الوحيد السفر أولاً إلى لندن، ومنها إلى المدينة، حيث لا بُدّ لنا قريبًا، من أن نمشي تحت قوس النصر المهيب، وإن كان اسمه قد اختير بغباوة».

غادرتُ مكتب كرامر ومعي كلّ حاجاتي: المال، وجوازا سفر، وضمانات سلامة المرور. عندما عبرتُ الجسر الأول، أفرغتُ محتويات قوارير الحبر اللامرئي. كان الحبر للأولاد الذين يروق لهم لعب الحرب، لكنّني لم أتخيّل يومًا أنّ البالغين سيأخذونه على محمل الجدّ إلى هذه الدرجة. ثمّ توجّهتُ إلى القنصلية الفرنسية، وطلبتُ إلى القائم بالأعمال أن يتّصل برئيس قسم مكافحة الجاسوسيّة. أجابني غير مصدّق.

«ولمَ تريدين ذلك؟».

قلتُ إنّها مسألة خاصّة، وإنّني لن أتكلّم أبدًا مع مرؤوسين حولها. لا بُدّ أنّني بدوت جدّية، إذ سرعان ما وجدتُ نفسي أهاتف المسؤول عنه، الذي أجاب من دون الكشف عن اسمه. قلتُ إنّني استُخدمتُ للتوّ من الاستخبارات

الألمانيّة، وزوّدته بكلّ التفاصيل، وطلبتُ اجتماعًا به فور وصولي إلى پاريس، وُجهتي التالية. سألني عن اسمي، وقال إنّه كان مُعجبًا بعملي، وإنّهم سيتّصلون بي حتمًا متى بلغتُ «مدينة الأنوار». شرحتُ أنّني لم أكن أعرف بعد في أيّ فندق سأحلّ.

«لا تقلقي؛ هذا عملنا بالضبط، أن نكتشف أمورًا مماثلة».

اصطبغت الحياة مجدّدا بالتشويق، ولكن ما كنتُ لأعرف كم كانت مشوّقة إلاّ لاحقًا. لعجبي، عندما وصلتُ إلى الفندق، كان بانتظاري مظروف يُطلب فيه إليّ الاتصال بأحد مديري مسرح تياترو ريال. قُبل عرضي، ودُعيتُ إلى تأدية الرقصات المصريّة التاريخيّة أمام العامّة، شرط ألاّ تنطوي على التعرّي. فكّرت في أنّها لمصادفة بحقّ. لكنّني لم أعرف ما إذا حدث ذلك بمساعدة الألمان أو الفرنسيين.

قرّرت قبول العرض. قسّمت الرقصات المصريّة إلى «العذريّة»، و«الشغف»، و«العفّة»، و«الوفاء». أطرت عليّ الصحف المحلّية، لكن بعد ثمانية عروض، اعتراني الملل إلى حدّ الموت مجدّدًا، والحلم بيوم عودتي الكبرى إلى پاريس.

في أمستردام، حيث كان عليّ أن أنتظر ثماني ساعات حتى يحين وقت رحلة الربط التي ستنقلني إلى إنكلترا، قرّرتُ أن أتمشّى قليلاً. صادفتُ مجدّدا المتسوّل الذي غنّى تلك الأبيات الغريبة عن تيا. كنت سأتابع المشي، لكنّه توقّف عن الغناء.

«لِـمَ أنتِ مُلاحَقة؟».

أجبتُ: «لأنّني جميلة ومُغرية ومشهورة».

لكنّه قال إنّ من يلاحقني ليس من أولئك، بل رجُلان اختفيا فجأة عندما لاحظا أنّه رآهما.

لم أعد أذكر متى كانت المرّة الأخيرة التي تحدّثتُ فيها إلى متسوّل. إذ إن ذلك لم يكن أمرًا مقبولاً تمامًا لسيدة مجتمع، مع أنّ من حسدوني ظلّوا يعدّونني فنّانة أو عاهرة.

«أنت هنا في الجنّة، مع احتمال ألا تكون كذلك. قد يبدو الأمر مملا. لكن أليست الجنّة مملّة؟ أعلم أنّك، بلا شك، تسعين إلى المغامرة، وآمل أن تسامحيني على وقاحتي، لكنني أرى أنّ الناس جاحدون بما يملكون».

شكرتُهُ على النصيحة، وذهبتُ في سبيلي. أيّ جنّة كانت هذه، حيث لا تشويق البتة؟ لم أكن أبحث عن السعادة، بل عمّا أسماه الفرنسيّون *la vraie vie*، الحياة الحقيقيّة، بكلّ لحظاتها من جمال لا يوصف وكآبة موغلة، بإخلاصاتها وخياناتها، بمخاوفها ولحظات السلام فيها. عندما أخبرني المتسوّل أنّني كنت ألاحق، تخيّلتُ نفسي أؤدّي دورًا يفوق أهمّيّة

كلّ الأدوار التي سبق أن أدّيتها: كنتُ شخصا أتيح له أن يغيّر مصير العالم، أن يجعل فرنسا تربح الحرب، فيما يدّعي التجسّس للألمان. يعتقد الناس أنّ الله عالم رياضيّات، لكنّه ليس كذلك. وإذا أراد أن يختار ما يكون، فسوف يؤدّي دور لاعب شطرنج، يستبق الحركة التالية لخصمه ويُعدّ استراتيجيّته لإلحاق الهزيمة به.

وهذا ما كنتُ عليه، أنا ماتا هاري التي ترى أن كلّ لحظة نور وكلّ لحظة ظلمة تحملان المعنى نفسه. صمدتُ بعد بطلان زواجي وفقداني الوصاية على ابنتي، مع أنّني سمعتُ، من أطراف ثالثة، أنّها كانت تُبقي إحدى صوري مُلصقة على علبة الغداء الخاصة بها. ومع هذا، لم أتذمّر في أي وقت من الأوقات، أو أقبع في مكان واحد. ويوم كُنتُ أقذف بالحجارة مع أستروك عند ساحل نورماندي، أدركتُ أنّني كنتُ دوما مُحاربة، أواجه معاركي بلا مرارة؛ فقد كانت جزءًا من الحياة.

ثماني ساعات من الانتظار في المحطّة مرّت بسرعة. وسرعان ما ركبتُ القطار الذي أقلّني إلى برايتون. عندما نزلتُ في إنكلترا، خضعتُ لاستجواب سريع؛ من الواضح أنّني كنتُ امرأة مستهدَفة، لسفري وحيدة، أو لأنّني كنت من كنتها، وهذا الأرجح في نظري، لأن وكالة الاستخبارات السريّة الفرنسية رأتني أدخل القنصليّة الألمانيّة، وحذّرت كلّ حلفائها. لم يعلم أحد باتصالي الهاتفي وتفانيَ من أجل البلد الذي كنت متوجّهة إليه.

سوف أسافر كثيرًا في السنتين المقبلتين، متنقّلةً بين بلدان لم يسبق لي أن زرتها، عائدة إلى ألمانيا لأرى إن كان بإمكاني أخذ أغراضي. وسوف أخضع لاستجواب قاسٍ على أيدي ضبّاط إنكليز؛ مع أنّ الكل، الكلّ بالمطلق، كانوا يعرفون أنّني كنت أعمل لصالح فرنسا. ظللت ألتقي أكثر الرجال

تشويقًا، وأتناول العشاء في أشهر المطاعم. وأخيرا، تبادلتُ النظرات مع حبّي الحقيقي الأوحد، وهو روسيّ فقد بصره بسبب غاز الخردل الذي استُعمل بعشوائيّة كبرى في هذه الحرب، ولأجله كنتُ على استعداد لفعل أي شيء.

ذهبتُ إلى ڤيتيل مُجازفةً بكلّ شيء من أجله. كانت حياتي قد اكتست معنىً جديدًا. كلّ ليلة عندما كنّا نأوي إلى الفراش، كنت أتلو مقطعًا من نشيد الأناشيد:

طوال اللّيل على مضجعي طلبتُ بشوقٍ من تحبّه نفسي، فما وجدْتُهُ.

سأنهض الآن أطوف في المدينة وأتجوّل في شوارعها وساحاتها، ألتمس من تحبّه نفسي. وهكذا رُحتُ ألتمسه فما وجدْتُهُ.

وعثر عليّ الحرّاس المتجوّلون في المدينة، فسألْتُ:
أشاهدْتُم من تحبّه نفسي؟

وما كدتُ أتجاوزهم حتى وجدتُ من تحبّه نفسي،
فتشبّثتُ به ولم أطلقه.

ومتى تلوّى ألمًا، كنتُ أسهد الليل بطوله، أداوي عينيه وحروق جسده.

ولحظة رأيته يجلس على منصّة الشهود يقول إنّه ما كان يومًا ليحبّ امرأة تكبره بعشرين سنة، أحسستُ بأكثر الخناجر حدّة تخترق قلبي. كانت مصلحته الوحيدة وجود من تضمّد جراحه.

وبحسب ما أخبرتني لاحقا، أستاذ كلونيه، كان ذاك المسعى المشؤوم للحصول على إذن مرور إلى ڤيتيل، الأمر الذي أثار شبهات ذاك الهالك لادو.

ومن هنا فلاحقًا، أستاذ كلونيه، لم يعد لديّ ما أضيفه إلى هذه القصّة. أنت تعرف حقّ المعرفة ما حدث، وكيف حدث.

وباسم كلّ ما عانيته ظلمًا، والمذلّات التي أُكرَهتُ على مُقاساتِها، والتجريح العلني الذي تعرّضتُ له أمام قُضاة مجلس الحرب الثالث، وأكاذيب الطرفين، كما لو أنّ الألمان والفرنسيين الذين كانوا يتذابحون، ما استطاعوا أن يدعوا امرأة وشأنها، امرأة كانت خطيئتها الكبرى أنّها كانت حرّة الفكر في عالم كان الناس فيه يباتون يومًا إثر يومٍ أكثر انغلاقًا ووحيدين. باسم كلّ هذا، أستاذ كلونيه، إذا رُفض طلب الاسترحام الأخير الذي قدّمته إلى الرئيس، أسألك وأرجوك أن تحفظ هذه الرسالة وتوصلها إلى ابنتي نو Non عندما تُصبح في سنّ تُمكّنها من فهم كلّ ما حدث.

ذات مرّة، عندما كنت على شاطىء في نورماندي مع وكيلي انذاك الأستاذ أستروك، الذي رأيته مرّة واحدة بعد عودتي إلى پاريس، قال إنّ البلاد تشهد موجة من معاداة الساميّة ولا يُريد أن يُرى بصحبتي. أخبرني عن كاتب يدعى أوسكار وايلد. لم يكن من الصعب إيجاد سالومي، المسرحيّة التي كان قد ذكرها، لكن لم يتجرّأ أحد على الاستثمار بسنتٍ واحد في عرض ما كُنت سأنتجه. ومع أنّني كنت مُفلسة، كُنت لا أزال أعرف أشخاصا نافذين.

لمَ أذكر هذا؟ كيف انتهى بي الأمر إلى الاهتمام بعمل هذا الكاتب الإنكليزي الذي قضى آخر أيّامه هنا في فرنسا، ودُفن من دون وجود أيّ أصدقاء يحضرون جنازته، وكانت تهمته الوحيدة أنّه عشق رجلاً؟ كنت أتمنّى لو أنّ هذه كانت إدانتي أيضًا، لأنّني طارحْتُ رجالا مشهورين

وزوجاتهم الفراش، كل ذلك بداعي السعي النهم خلف اللذّة. لم يتّهمني أحدٌ يومًا، لأنّهم حينذاك، سيكونون شهودًا لي.

بالعودة إلى الكاتب الإنكليزي، الذي بات الآن رجيمًا في بلده ومنبوذًا في بلدنا، قرأتُ خلال سفري المتواصل كثيرًا من أعماله المسرحيّة، واكتشفتُ أنّه كتب أيضًا قصصا للأطفال.

يرغب تلميذٌ في سؤال محبوبته أن تراقصه، لكنّها ترفض، قائلةً إنّها ستقبل شرط أن يأتي لها بوردة حمراء. وحدث أنّ المكان الذي يقطنه الشاب، لم يكن فيه إلّا ورود صفراء وبيضاء.

سمع البلبل الحديث. وإذ رأى الفتى المسكين في أسى، قرّر أن يساعده. فكّر أولاً في إنشاد شيء جميل. لكن سرعان ما أدرك أنّه سيزيد الأمر سوءًا. فإلى جانب وحدته، سيكتئب الفتى.

سألت فراشة عابرة عمّا يجري.

«إنه يعاني بسبب الحبّ. عليه إيجاد وردة حمراء».

«من السخف المعاناة بسبب الحبّ»، قالت الفراشة.

غير أنّ البلبل كان عازمًا على مساعدته. في وسط حديقة شاسعة، نبتَتْ شجيرة مليئة بالورود الحمراء.

«أعطني وردة حمراء من فضلك».

قالت الشجيرة إنّ هذا مستحيل، وإنّ عليه أن يجد شجيرة أخرى، فورودها كانت حمراء يومًا، وباتت بيضاء الآن.

وهكذا فعل البلبل. حلّق بعيدًا ووجد شجيرة قديمة. طلب قائلاً: «أحتاج إلى وردة حمراء».

كان الجواب: «أنا مُسنَة جدًا على ذلك. فقد جمَد الشتاء عروقي، وأذبلت الشمس بتلاتي».

قال البلبل متوسّلاً: «واحدة فقط. لا بُدّ من سبيل إلى ذلك!..

نعم، ثمة سبيل. لكنّ السبيل كان فظيعًا إلى درجة أنّ الشجيرة امتنعت عن التفوّه به.

«لستُ خائفًا. قولي ما عليّ أن أفعل لأحصل على وردة حمراء. وردة حمراء واحدة».

«عُد ليلا وأنشد لي أجمل نغمات البلابل وأنت تضغط بصدرك على إحدى أشواكي. وسينفذ الدم إلى نسغي ويلوّن الوردة».

وهكذا فعل البلبل تلك الليلة، مُقتنعًا أن الأمر يستحقَ التضحية بحياته من أجل الحب. وحالما طلع القمر، ضغط بصدره على الشوكة وراح يُنشد. أنشد أوّلاً عن رجل وامرأة وقعا في الحبّ، ثمّ أنشد كيف للحبّ أن يُبرّر أي تضحية. وأخذ البلبل يُنشد، فيما كان القمر يعبر السماء. وأخذ دمه يوشّح أجمل ورود الشجيرة بالأحمر القرمزي.

«أسرَع»، قالت الشجيرة في إحدى اللحظات. «قريبا ستطلع الشمس».

وقرّب البلبل صدره أكثر، وإذا بالشوكة تنغرس لحظتها في قلبه. لكنّه ظلّ يُنشد إلى أن أنجز صنيعه.

وإذْ أُرهِق، ولمعرفته أنّه على شفير الموت، التقط أجمل الورود الحمراء وطار بها إلى التلميذ. ووصل إلى شبّاكه ووضع الوردة عنده ومات.

سمع التلميذ الجلبة، فتح الشباك، وهناك كان أكثر ما حلُم به في العالم. كانت الشمس تطلع؛ أخذ الوردة وهرع إلى منزل محبوبته.

«هاكِ ما طلبتِ إليّ»، قالها متعرّقًا وسعيدًا في آن.

أجابت الفتاة: «ليست هذه ما طلبت. إنها كبيرة جدًّا وسوف تطغى على فستاني. كما أنّني سبق أن تلقّيتُ دعوة أخرى لحضور الحفل الليلة».

ولتفجُّعه، رحل الفتى ورمى بالوردة في القناةِ حيث دهستها على الفور عربة مارّة. وعاد إلى كُتُبه، التي لم تطلب إليه قط شيئًا عجز عن تلبيته.

كانت تلك حياتي؛ أنا البلبل الذي أعطى كلّ شيء ومات وهو يُعطي.

المخلصة،

ماتا هاري

(المعروفة سابقًا باسم اختاره لها والداها، وهو مارغاريتا زيلَيه، ثمَ أُجبرت على اعتماد اسمها بالزواج، المدام ماكلاود؛ وأخيرًا أقنعها الألمان مقابل ٢٠ ألف فرنك فقط أن توقّع على كلّ شيء باسم H21).

الجزء الثالث



باريس، ١٤ أكتوبر ١٩١٧

عزيزتي ماتا هاري،

مع أنّك لست على علم بعد، فإن الرئيس قد رفض طلبك العفو. لهذا، سأذهب مُبكرًا في صباح الغد لمقابلتك، وستكون المرّة الأخيرة التي يرى فيها واحدنا الآخر.

أمامي إحدى عشرة ساعة مريرة، وأعلم أنّ جفنًا لن يغمض لي ولو لثانية، الليلة. لهذا، أكتب إليك هذه الرسالة، التي لن تقرأها يوما المعنيّة بها، لكنّني أنوي تقديمها كدليل أخير في التحقيق؛ ومع أنّه سيكون بلا جدوى تمامًا من الناحية القانونية، فإنني آمل على الأقل أن أُعيد إليك سمعتك الطيّبة ما دمتُ حيًا.

لا أنوي تبرير عدم أهليّتي في هذا الدفاع، فأنا لم أكن في الواقع ذلك المحامي الرهيب الذي غالبًا ما اتّهمتني بأنّني كنتُهُ في رسائلك المتعدّدة. اريد فقط أن أعاود عيش المحنة التي أناخت بي على مدى الشهور القليلة الماضية، وإن لمجرّد أن أتبرّأ من خطيئة لم أرتكبها. إنّها محنة لم أعشها منفردًا، كنت أحاول بشتّى الطرائق أن أُنقذ امرأة أحببتها يومًا، مع أنّني لم أعترف بذلك قط.

إنّها محنةٌ تعيشها الأمّة بأسرها. في هذه الأيام، بات لكلّ عائلة بلا استثناء في هذا البلد فقيد خسرته في ميدان القتال. ولهذا السبب، نحن نرتكب المظالم، والفظاعات، وأمورًا لم أتصوّر حدوثها يومًا في بلدي. وفي

الوقت الذي أكتب فيه الآن، تُشَنّ معارك عدّة لامتناهية على بعد مئتي كيلومتر من هنا. وأكبرها وأكثرها دمويّة بدأت بفعل سذاجة من جهتنا؛ اعتقدنا أن مئتي ألف جنديٍ باسلٍ قادرون على هزيمة أكثر من مليون ألماني زحفوا بدبّاباتهم ومدفعيّاتهم الثقيلة نحو العاصمة. ومع أنّ المقاومة كانت باسلة وأسفرت عن سفكٍ هائل للدماء وعن آلاف القتلى والجرحى، فإن جبهة الحرب لا تزال تمامًا كما كانت عليه عام ١٩١٤ عندما بدأ الألمان بالعدوان.

عزيزتي ماتا هاري، كان خطؤك الأكبر أنَك عثرت على الرجل الخطأ للقيام بفعل صائب. إنَ جورج لادو، رئيس قسم مكافحة الجاسوسيَة الذي اتّصل بك فور عودتك إلى باريس، رجلٌ اشتبهت به الحكومة. كان أحد المسؤولين عن قضية درايفوس، وهو خطأ قضائي لا يزال يُخزينا حتّى اليوم بإدانة رجل بريء، والحكم عليه بالتحقير والنفي. بعد أن أُميط اللثام عن لادو، حاول تبرير أفعاله بالقول إنّ عمله «لم ينحصر في معرفة خطوات العدو التالية، بل في الحؤول دون أن يحطّ من معنويات أصدقائنا». سعى إلى الترقية، لكنّ مسعاه رُدّ. تحوّل رجلًا مريرًا في حاجة ماسّة إلى قضيّة مشهورة لاستعادة وقاره في القاعات الحكوميّة. ومن كان أفضل من ممثّلة يعرفها الجميع، وتحسدها زوجات الضباط، وتكرهها النخبة التي كانت قبل سنوات من ذلك تقدّسها؟

لا يجوز للشعب التفكير فقط في حالات الموت الطارئة في فردان ومارن وسومَ. لا بدّ من إلهائهم بنوع من النصر. وإذ أدرك لادو ذلك، أخذ يحبك شبكته المخزية لحظة وقع بصره عليكِ. لقد وصف لقاءكما الأول في ملاحظاته، بهذه الكلمات:

«دخلتْ مكتبي كمن يعتلي منصّة، متبخترةً بلباس رسمي

ومُحاولةَ التأثير بي. لـم أدْعُها إلى الجلوس، غير أنّها سحبت كرسيًّا، وجلست عند الناحية المقابلة لي من طاولة المكتب. بعد أن أخبرتني عن الطرح الذي عرضه عليها القنصل الألماني في لاهاي، قالت إنّها على استعداد أن تعمل لصالح فرنسا. كما أنّها سخرت من عملائي الذين كانوا يلاحقونها قائلة «ألا يُمكن لأصدقائك في الأسفل أن يدعوني وشأني لبعض الوقت؟ كلّ مرّة أخرج فيها من الفندق حيث أنزل، يدخلونه ويقلبون غرفتي رأسًا على عقب. لا يُمكنني الذهاب إلى مقهى من دون أن يحتلّوا الطاولة المجانبة لي، وقد نفّر ذلك كلّ الصداقات التي عملتُ على تنميتها طويلاً. والآن لـم يعد أصدقائي يرغبون أن يُشاهدوا برفقتي».

سألتُها كيف تودّ أن تخدم البلاد. أجابت بوقاحة: «أنت أدرى. في نظر الألمان أنا H21، وربـما ملك الفرنسيون ذوقا أفضل في اختيار الأسماء لـمن يخدمون البلاد سرًّا».

رددتُ بطريقة حمَلت كلماتي معنى مزدوجا: «نعلم جميعًا ما يشاع عنك في أنّك مكلفة في كلّ ما تفعلين. كم سيكلّف هذا؟».

«الكلّ أو لا شيء»، كان جوابها.

وحالما رحلت، طلبتُ إلى سكرتيرتي أن تُرسل إليّ «ملفّ ماتا هاري». بعد أن قرأتُ كلّ المواد المجموعة، التي كلّفتنا ثروة لتسديد ساعات عمل الأشخاص المكلّفين، عجزتُ عن إيجاد ما يُجرّمها. من الجلي أنّ هذه المرأة فاقت عملائي ذكاءً، وتدبّرت أحسن تدبير ستر أنشطتها الشائنة».

بعبارة أخرى، ومع أنّكِ كُنت مذنبة، لـم يتمكّنوا من إيجاد ما

يُجرَمك. واصل العملاء تقديم تقاريرهم اليوميّة. وعندما ذهبتِ إلى ڤيتيل مع حبيبك الروسي ذاك الذي أعماه غاز الخردل في إحدى هجمات الألمان، بلغت مجموعة «التقارير» حدّ السخافة.

يراها الناس في الفندق على الدوام برفقة مُعوَق الحرب الذي يصغرها على الأرجح بعشرين سنة. وبالحكم على جذلها وطريقة مشيتها، فإنّنا واثقون أنّها تتعاطى المخدّرات، وعلى الأرجح المورفين أو الكوكايين.

ذكرتْ لأحد النزلاء أنّها كانت واحدة من أفراد العائلة الهولندية المالكة. ولآخر قالت إنّها كانت تملك قصرًا في نويي. وذات مرّة، عندما خرجنا لتناول العشاء وعُدنا إلى العمل، كانت تُغنّي في القاعة الرئيسيّة لمجموعة من الشبان والشابات، ونحن على ثقة شبه أكيدة أنّ هدفها الأوحد كان إفساد أولئك الفتيات والفتيان الذين عرفوا وقتذاك أنّهم كانوا أمام المرأة التي عدّوها «نجمة المسرح الپاريسي العظيمة».

عندما رجع حبيبها إلى الجبهة، بقيت في ڤيتيل لأسبوعين آخرين، تتنزّه على الدوام، تتناول الغداء والعشاء وحيدة. لم نتمكّن من رصد أيّ اتصال مع عميل عدو، لكن مَن كان لينزل في فندق منتجع وحيدًا، ما لم يكن لديه مصالح مشبوهة؟ مع أنّها كانت تحت مراقبتنا على مدار ساعاتِ اليوم، فإنها بلا ريب قد وجدت طريقة للالتفاف على رقابتنا.

وكان حينها، عزيزتي ماتا هاري، أن حلّت الضربة الأرذل على الإطلاق. تعقّبك أيضا الألمان الذين كانوا أكثر تكتّمًا وفاعليّة. ومنذ

زيارتك للنقيب لادو، استخلصوا أنّك قرّرت أن تكوني عميلة مزدوجة. وفيما كنت تتبخترين في ڤيتيل، كان القنصل كرامر، الذي استخدمك في لاهاي، يخضع للاستجواب في برلين. أرادوا أن يعرفوا أمر العشرين ألف فرنك التي صُرفت على شخص كانت نبذته الشخصيّة مماثلة لنُبذة جاسوس تقليدي، يكون في العادة متكتّما ومتخفيًا عمليًّا. ما الذي دعاه إلى استدعاء شخص على هذا القدر من الشهرة لمساعدة ألمانيا في جهودها الحربيّة؟ أكان هو أيضًا متواطئًا مع الفرنسيين؟ كيف، بعد كلّ ذلك الوقت الطويل، لم تتقدّم العميلة H21 ولو بتقرير واحد؟ «كان بين الحين والحين يُقاربها عميل، عادة في وسائل النقل العام، يطلب إليها معلومة واحدة على الأقل، لكنّها كانت تبتسم ابتسامة إغواء قائلة إنّها لم تكن قد حصلت على شيء بعد».

لكن في مدريد، تمكّنوا من اعتراض رسالة بعثت بها إلى رئيس قسم مكافحة الجاسوسيّة، ذاك الدنيء لادو، تروي فيها بالتفصيل مقابلة مسؤول ألماني عالي الشأن تمكّن أخيرًا من الالتفاف على رقابتهم ومقاربتك.

«سألني: علام حصلت؟ وهل بعثت بأي رسائل بالحبر اللامرئي؟ وهل ترجّحين أن يكون شيءٌ قد ضلّ الطريق. قلت: لا. طلب أن أذكر اسمًا، فقلت له إنّني ضاجعتُ ألفرد كيپيرت.

ثمّ في ثورة غضب، صرخ بي قائلاً إنّه لم يكن مهتمًا بمعرفة من ضاجعت، ففي هذه الحال، سيكون مضطرًا إلى ملء صفحات وصفحات بأسماء إنكليز وفرنسيين وألمان وهولنديين وروس. تجاهلتُ التهجّم. هدأ وعرض عليّ سيجارة. أخذتُ أحرّك ساقيّ بإغواء. وإذ خال أنّه قبالة امرأة عقلها بحجم حبّة البزلى، قال بغير تبصُّر: «آسف على تصرّفي، أنا تعِب. عليّ أن أصبّ كلّ تركيزي

على تنظيم وصول الذخيرة التي يرسلها الألمان والأتراك إلى ساحل المغرب». كما أنّني طلبت الخمسة آلاف فرنك التي كان كرامر يدين لي بها، قال إنّه لا يملك صلاحية ذلك، وإنّه سيطلب إلى القنصليّة الألمانيّة في لاهاي أن تتولى المسألة. وأضاف: «نحن نسدّد دومًا ما علينا»».

تأكّدت أخيرًا الشبهات حول الألمان. لا نعرف ماذا حلّ بالقنصل كرامر، غير أنّ ماتا هاري كانت قطعًا عميلة مزدوجة، لم تكن حتّى ذلك الوقت قد قدّمت أي معلومة مماثلة. لدينا مركز رقابة إذاعي أعلى برج إيفيل، غير أنّ معظم المعلومات التي يتبادلونها مرمّزة وتستحيل قراءتها. بدا لادو أنّه كان يقرأ تقاريرهم ولا يُصدّق أيّ شيء؛ لم أعرف قط إن كان قد أرسل شخصًا للتحقّق من وصول الذخيرة إلى شواطىء المغرب. لكن فجأة، أُرسلت برقيّة من مدريد إلى برلين بشيفرة كانوا يعرفونها، وكان الفرنسيون قد فكّكوها، وأضحت محور الادّعاء، مع أنّها لم تأتِ على ذكر ما يتعدّى اسمك الحركي.

أُعلِمت العميلة H21 بوصول غوّاصة إلى ساحل المغرب وعليها المساعدة في نقل الذخيرة إلى الأسطول البحري. هي مسافرة إلى پاريس وستصل إليها في الغد.

حينذاك، امتلك لادو كلّ الأدلّة التي احتاج إليها لتجريمك. لكنّني لم أكن على ذاك القدر من الحماقة لأخال أنّ برقية بسيطة ستُقنع المحكمة العسكرية بذنبك. خصوصا وأنّ قضية درايفوس كانت لا تزال نابضة

في مخيّلة الجميع: أُدين رجل بريء بسبب شيء مكتوب، غير موقّع وغير مؤرّخ. لذا كان ثـمّة حاجة إلى أشراك أخرى.

ما الذي جعل دفاعي باطلاً عمليًا؟ إضافةً إلى القضاة، والشهود، والمتّهمين، الذين سبق أن كوّنوا رأيًا، فأنت لم تُساعديني كثيرًا. لا يُمكنني أن ألومك. لكن هذه النزعة إلى الكذب منذ وصولك إلى پاريس، أدّت إلى فقدان الثقة بكلّ فحوى تصاريحك التي قدّمتها إلى القضاة. أبرز الادّعاء بيانات حسّية أكّدت أنّك لم تولدي في الجزر الهندية الشرقيّة التابعة للإمبراطوريّة الهولندية، أو أنّك تدرّبت على أيدي كهنة إندونيسيين، وأنّك لم تكوني عزباء، وأنّك كنت قد زوّرت جواز سفرك لتظهري أصغر سنًّا. في زمن السلام، ما كان ليؤخذ بأيّ من هذا في الحسبان، لكن في المحكمة الحربيّة أمكن سماع أصوات القنابل تتردّد مع الريح.

لذا، في كلّ مرّة حاججتُ فيها أمرًا كهذا: «لجأت إلى لادو فور وصولي إلى هنا»، كان يعترض قائلاً إنّ هدفك الوحيد الحصول على مزيد من المال. وإغواؤه بمفاتنك. في قوله وقاحة لا تُغتفر، لأنّ المفتّش، القصير والبدين الذي يزن ضعف وزنك، خال إنّك تستحقّين ذلك... إنّك نويت تحويله دمية في أيدي الألمان. ولتعزيز الواقعة، أتى على ذكر هجوم زيپلين الذي كان قد سبق وصولك، وهو إخفاق للعدو، ذلك أنّه لم يُصب أيّ موقع استراتيجي. لكن في نظر لادو، كان دليلاً لا يُمكن تجاهله.

كُنت حسناء، ومعروفة في مختلف أرجاء العالم، ومحسودة دوما، لكن غير محترمة يوما في قاعات الحفلات التي عرضت فيها. كاذبون، بحسب القليل الذي أعرفه عنهم، أولئك الذين يسعون إلى الشعبيّة والاعتراف. حتّى متى وُوجهوا بالحقيقة، يجدون دوما سبيلا إلى الهروب، مُكرّرين ببرودة

ما قيل، أو يلومون المتّهم باختلاق الأكاذيب. أفهم أنّك أردت أن تخلقي قصصًا خياليّة عن نفسك، إما بداعي انعدام الاطمئنان، وإما لرغبتك شبه الواضحة في أن تُحبّي بأي ثمن. أفهم أنّك للتلاعب بكثير من الرجال الذين كانوا خبراء في التلاعب بالآخرين، كنتِ ترين في القليل من الخيال ضرورة لا بُدّ منها. إنّه أمر لا يُغتفر، لكنّه الواقع؛ وهذا ما أفضى بك إلى حيث أنت الآن.

سمعتُ أنّك درجتِ على القول إنّك ضاجعتِ «الأمير و.»، ابن القيصر. لديّ علاقاتي في ألمانيا وكلّهم يُجمعون على أنّك لم تتخطّي مسافة مئة كيلومتر من القصر، حيث أقام خلال الحرب. تفاخرت بمعرفتك كثيرًا من الناس في اللجنة العليا الألمانية؛ قُلتِها علانية لكي يسمع الجميع. عزيزتي ماتا هاري، أيّ جاسوس يتمتّع بكامل قواه العقليّة يأتي على ذكر أفعال همجيّة مماثلة مع العدو؟ غير أنّ رغبتك في جذب انتباه الناس، في وقت كانت شهرتك فيه تأفل، زادت الطين بلّة.

لكن، عندما كنت على منصّة الشهود، كانوا هم الذين كذبوا. غير أنني كنتُ أدافع عن شخص لا تثق به العامة. إنّ التُّهم التي عدّدها الادّعاء في البداية، تُهم مثيرة للشفقة تمامًا، جبلت الحقائق التي قلتها بأكاذيب قرّروا حياكتها. صُدمتُ عندما أرسلوا إليّ المواد بعد أن استوعبتِ أخيرًا أنّك كنت في وضع صعب، وقرّرت توكيلي.

هذه بعض الاتّهامات:

١. زيليه ماكلاود تنتمي إلى الاستخبارات الألمانية، تُعرف باسم H21 (واقعة).

٢. ذهبتْ مرّتين إلى فرنسا منذ بدء الاعتداءات، بإرشاد من

معلَميها بالطبع، للحصول على معلومات استخباراتيّة لصالح العدو. (تعقّبك رجال لادو طوال اليوم- كيف أمكنك ذلك؟).

٣. في زيارتها الثانية، عرضت خدماتها على الاستخبارات الفرنسيّة في حين أنّها، كما أُبرز آنفاً، تشاركت مع الجاسوسيّة الألمانيّة في كلّ شيء. (خطآن هنا: أجريتِ اتصالاً هاتفيًا من لاهاي لتحديد اجتماع؛ عُقد هذا الاجتماع مع لادو في زيارتك الأولى، ولم يُبرِز أيّ دليل بالمطلق على أي أسرار «تشاركتِ» فيها مع الاستخبارات الألمانية).

٤. عادت إلى ألمانيا بذريعة جمع الملابس التي تركَتْها فيها، لكنّها رجعت خالية الوفاض تمامًا، وأوقفتها الاستخبارات البريطانيّة لاتّهامها بالجاسوسيّة. أصرّت على أن يتّصلوا بالنقيب لادو، غير أنّه رفض تأكيد هويّتها. ومن دون أي حجّة أو دليل لإيقافها، أُرسلت إلى إسبانيا ورآها رجالنا تتوجّه من فورها إلى القنصليّة الألمانيّة. (واقعة).

٥. بحجّة حيازتها معلومات سريّة، ذهبت بُعيْد ذلك إلى القنصليّة الفرنسيّة في مدريد، قائلة إنّها تحمل أنباءً عن وصول الذخيرة إلى قوات العدو، الذخيرة التي كانت تلك اللحظة تمضي في المغرب مُرسلة من الأتراك والألمان. وإذ كنّا على علم مُسبق بدورها كعميلة مزدوجة، قرَرنا ألا نخاطر بأيَ رجل في مهمَة أشار كلّ شيء إلى أنّها فخ... (؟؟؟) .

وهلمّ جرًا: سلسلة من الأضاليل التي لا تستحق التعداد، كلّلتها

البرقيَة التي أُرسلت عبر قناة مفتوحة، أو شيفرة مفكّكة، لتلطّخ إلى الأبد المرأة التي، بحسب ما اعترف به كرامر لاحقًا لمُستجوبه، كانت «الأسوأ بين اختياراتنا السيئة للجواسيس بهدف خدمة قضيّتنا». حتّى أنّ لادو ادّعى أنّك ابتكرت الاسم H21، وأنّ اسمك الحركي الصحيح هو H44، العائد إلى العميل الذي تدرّب في أنتويرپ بهولندا، في مدرسة الجواسيس الشهيرة فرولاين دكتور شراغمولر.

في الحرب، تكون كرامة الإنسان أولى الضحايا. إنّ توقيفك، كما سبق أن قلت، سيخدم إظهار قدرة الجيش الفرنسي، ويُحوّل الانتباه عن آلاف الشبّان الذين يهلكون في ميدان القتال. في زمن السّلم، لن يقبل أحد تلك الأوهام على أنّها دليل. في زمن الحرب، كانت كلّ ما لزم القاضي لتوقيفك في اليوم التالي.

تحاول الأخت پولين، التي كانت صلة الوصل بيننا، أن تُحيطني علمًا على الدوام بكلّ المستجدّات الطارئة في السجن. مرّة قالت لي متورّدة الوجنتين خجلاً، إنّها طلبت إليك الاطّلاع على سجلّ القُصاصات الذي يضمّ كلّ ما نُشر عنك.

«كنتُ أنا مَن طلب ذلك. لا تُطلق أحكامًا عليها لمحاولتها ترويع راهبة بسيطة بأمور لاأخلاقيّة».

ومن أنا لأُطلق الأحكام؟ لكن منذ ذلك اليوم، قرّرتُ أن أجمع ألبومًا مماثلاً عنك، مع أنّني لا أفعل هذا قط في شأن أيّ زبون آخر. ولمّا كانت فرنسا كلّها مهتمّة بقضيّتك، فإن المقالات الصحافيّة راحت تفيض حول الجاسوسة الخطيرة المحكومة بالإعدام. خلافًا لدرايفوس، فإن ما من عريضة أو تظاهرة شعبيّة تلتمس الصفح عنك.

ألبومي مفتوح إلى جانبي، على الصفحة التي تعرض فيها صحيفة وصفا لما جرى في اليوم التالي للمحاكمة، ووجدتُ خطأً واحدًا في المقال، حول جنسيَتك.

مُتجاهِلةً واقع أنّ المحكمة العسكريّة الثالثة كانت تحكم في قضيّتها في تلك اللحظة بالذات، أو مُدّعيةً أنّها لم تكن قلقة في شأن ما يجري لأنّها عدّت نفسها امرأة فوق الخير والشرّ، عالمةً على الدوام بخطوات الاستخبارات الفرنسيّة، ذهبت الجاسوسة الروسيّة ماتا هاري إلى وزارة الشؤون الخارجيّة لطلب إذن بالذهاب إلى الجبهة للقاء حبيبها الذي كانت عيناه قد تضرّرتا تضرّرًا بالغًا، ومع ذلك، أُجبر على القتال. سمّت مدينة فردان على أنّها موقعها، وهي ذريعة قصدت منها إظهار أنّها لم تكن على علم بكلّ ما يجري في الجبهة الشرقيّة. قيل لها إنّ الأوراق المعنيّة لم تكن قد وصلت بعد، غير أنّ الوزير بذاته كان يتولّى أمرها.

صدر الحكم القضائي بشأن مذكرة التوقيف فور انتهاء الجلسة المغلقة، التي مُنع عنها الصحافيون. وكانت تفاصيل القضيّة ستُعلن للعامّة فور انتهاء المحاكمة.

كان وزير الحرب قد أصدر مذكّرة التوقيف وأرسل بها إلى الحاكم العسكري في باريس قبل ثلاثة أيام - الشُعبة *SCR-10 3455*. لكن كان عليه الانتظار ريثما تُصبح التهمة رسميّة، قبل تنفيذ مذكَرة مماثلة.

توجّهت فرقة تضمّ خمسة أشخاص من فورها، يقودها مدّعي مجلس الحرب الثالث إلى الغرفة ١٣١ في فندق *Hotel Élysée Palace*، ووُجدت المشبوهة مدّثرة برداء حريري للنوم، لا تزال تتناول الفطور. عندما سُئلت لما كانت تفعل ذلك، زعمت أنها كانت مضطرة إلى النهوض باكرًا جدًّا، والذهاب إلى وزارة الشؤون الخارجيّة، وأنّها آنذاك كانت تشعر بالجوع.

فيما طلب عناصر الفرقة إلى المتّهمة ارتداء ملابسها، فتّشوا الشقه ووجدوا عددا هائلا من الأغراض، كانت بمعظمها ملابس ومكمّلات نسائيَة. كما وجدوا إذنًا بالسفر إلى فيتيل، ورخصة عمل في فرنسا مقابل أجر ، بتاريخ ١٣ ديسمبر ١٩١٥.

زعمت أنّ الموضوع برمّته مجرّد سوء تفاهم، وطلبت إليهم وضع قائمة مفصّلة بكلّ ما كانوا يأخذونه، لكي تتمكّن من مقاضاتهم إذا لم يعيدوا كلّ شيء إلى غرفتها على أتمّ حال تلك الأمسية بالذات.

وحدها صحيفتنا كان لها إمكانية الوصول إلى مجرى الاجتماع الذي تمّ بينها وبين مدّعي مجلس الحرب الثالث، النقيب پيار بوشاردون، من خلال مصدر سرّي دَرَجَ على تزويدنا بمعلومات حول مصير الناس المندسّين، والذين سقطت أقنعتهم لاحقًا. أفاد هذا المصدر، الذي زوّدنا بالمحضر المدوّن كاملاً، بأن النقيب بوشاردون قد ناولها لائحة التّهم الملصقة بها، وطلب إليها أن تقرأها. عندما فرغت من القراءة، سألها إن كانت تريد محاميا. الأمر الذي رفضته جازمةً، وأجابت:

«لكنّني بريئة! لا بُدّ أن ثمة شخصًا يدبّر لي مقلبًا، أنا أعمل لصالح الاستخبارات الفرنسيّة، عندما تطلب إليّ شيئًا ما، وهو أمر لم يحدث كثيرًا».

طلب إليها النقيب بوشاردون أن توقّع على مستند كتبه المصدر الخاص بنا، وفعلت ذلك طائعة. كانت على قناعة بأنّها سترجع عصر ذاك اليوم بالذات إلى نعيم الفندق، وتتّصل من فورها بالدائرة «الواسعة لأصدقائها الذين سيبرّزون في نهاية المطاف السخافات التي اتُّهمت بها.

ما إن وقّعت الجاسوسة على التصريح المعني، حتّى اقتيدت إلى سجن

سان لازار، مُكرّرة باستمرار، وعلى شفير الهستيريا: «أنا بريئة! أنا بريئة!» في حين تدبّرنا ضمان إجراء مقابلة حصريّة مع المدّعي.

قال: «لم تكن امرأة جميلة حتّى، كما ادّعى الجميع، غير أنّ افتقارها التامّ إلى الريبة، وافتقارها التامّ إلى العطف، أوديا بها إلى التلاعب بالرجال وتدميرهم، الأمر الذي أدّى إلى حالة انتحار على الأقلّ. المرأة الواقفة أمامي كانت جاسوسة قلبًا وروحًا».

من هناك، توجّه فريقنا إلى سجن سان لازار، حيث كان صحافيّون آخرون قد تجمّعوا للتحدّث إلى المدير العام للسجن. بدا أنّه يشاطر النقيب بوشاردون رأيه، ورأينا كذلك، أنّ جمال ماتا هاري قد ذوى مع الزمن.

قال: «لا تزال جميلة، في صورها فقط».

«إنّ أسلوب حياة الخلاعة الذي واظبت عليه لمدّة طويلة عنى أنّ المرأة التي جاءت إلى هنا اليوم تبدّت عن هالتين سوداوين هائلتين تحت عينيها، وشعر آخذ في فقدان لونه عند الجذور، وتصرّف متمايز جدًّا. لم تتفوّه بشيء باستثناء «أنا بريئة!»، صارخةً على الدوام، كما لو أنّها عادت إلى تلك الأيام التي تعذّر فيها على النسوة، بسبب طبيعتهنّ، التحكّم بسلوكهن كما يجب. فاجأني الذوق الرديء لبعض أصدقائي الذين كان لهم اتصال أكثر حميميّة بها».

أكّد ذلك طبيب السجن، الدكتور جول سوكيه، الذي - بالإضافة إلى الشهادة بأنّها لم تكن تعاني أيّ مرض، لم تعانِ من حمّى، ولم يُظهر لسانها أيّ علامات على اختلالات معَديّة، ولم تظهر مُعاينة رئتيها وقلبها بالسمّاعة أعراضًا مُريبة - أجاز نقلها إلى إحدى زنزانات سان لازار، لكن بعد الطلب إلى الراهبات المسؤولات عن ذاك الجناح تأمين مخزون من الفوط الصحيّة، ذلك أنّ السجينة كانت حائضًا.

آنذاك، بعد استجوابات متعدّدة أجراها مَن ندعوهم *Torquemada de Paris*، آنذاك فقط اتّصلتِ بي وذهبتُ إلى زيارتك في سان لازار. لكنّ الأوان كان قد فات؛ فكثير من الأقوال التي صرّحتِ بها كانت قد ورّطتك في نظر ذاك الرجل الذي، كما علمت نصف پاريس، خانته زوجته. إن رجلاً مثل هذا يا ماتا هاري يكون أشبه بوحش مضرّج بالدماء يسعى إلى الانتقام بدلاً من سعيه إلى العدالة.

قرأتُ شهاداتك قبل وصولي، فوجدتُ أنّك صببت اهتمامك على إظهار أهمّيتك أكثر من الدفاع عن براءتك. تحدّثتِ عن أصدقاء ذوي نفوذ، ونجاح عالمي، ومسارح مكتظّة، في حين كان الأولى بك فعل العكس تمامًا: إظهار أنّك ضحيّة، كبش محرقة للنقيب لادو، الذي استغلّك في معركته الداخليّة مع زملائه للاستيلاء على الإدارة العامّة لقسم مكافحة الجاسوسيّة.

عندما عُدتِ إلى الزنزانة، بحسب ما قالته لي الأخت پولين، بكيت بلا انقطاع، وقضيتِ لياليَ ساهدة مرتاعة من الفئران التي اكتسحت ذلك السجن المشين، المستَعمل الآن لمجرّد تدمير ذوات اللواتي خِلن أنفسهن قويّات: نسوة مثلك. قالت إنّ الصدمة من كلّ هذا ستُفضي بك إلى الجنون قبل المحاكمة. طلبت غير مرّة أن تُنقلي إلى المشفى، بما أنّك كنت عمليًا مُحتجزة في زنزانة انفراديّة، ولم يكن لك تواصل مع أحد، وكان مشفى السجن، بما فيه من موارد محدودة، يتيح لك محادثة أحد على الأقل.

في تلك الأثناء، أخذ اليأس يدبّ في مُتّهميك، لأنّهم لم يعثروا في

مقتنياتك على ما يجرِّمك؛ أهم ما عثروا عليه حقيبة جلديّة تحتوي على بطاقات عمل تعريفيّة عدّة. أمَرَ بوشاردون أن يُستجوَب أولئك الرجال المحترمون، الذين شغلوا انتباهك على مدى سنوات، واحدًا واحدًا. ونفوا كلَهم بقاءهم على اتصال حميمي بك.

وصلت حجج المدّعي، الدكتور مورنيه، إلى حدّ مثير للشفقة. في إحدى المراحل، وبغياب أيّ دليل، ادّعى الآتي:

«زيلّيه من نوع النساء الخطيرات اللواتي نراهن اليوم. إنّ السهولة التي تعبّر بها في عدّة لغات - الفرنسية تحديدًا - وعلاقاتها المتعددة في كلّ المجالات، وطريقتها الرفيعة بالتغلغل في الأوساط الاجتماعيّة، وأناقتها، وذكاءها الملحوظ، وانعدام أخلاقها، كلّها تُسهم في اعتبارها مشبوهة محتملة».

ومما يُثير الاهتمام، في الختام، أن النقيب لادو، حتى هو، شهد كتابة لصالحك؛ لم يكن لديه البتّة ما يُظهره لـ *Torquemada de Paris*. وأضاف:

«من الجليّ أنّها كانت في خدمة أعدائنا، لكن عليكم أن تبرهنوا ذلك، ولا أملك ما يُثبت هذا القول. إذا أردتم دليلاً جوهريًا في التحقيق، فمن الأفضل أن تقصدوا وزير الحرب، الذي يملك مستندات مماثلة. من جهتي، أنا على قناعة بأنّ شخصًا يُمكنه السفر في الزمن الذي نحيا فيه، ويكون لديه صلات بهذا العدد من المسؤولين، لهو دليل كافٍ، بالرغم من عدم وجود شيء خطّي، أو أنّه شيء لا يُعَدّ من الحجج المقبولة في محاكم الحرب».

أنا منهك جدًا. أنا أحيا لحظة من الضياع؛ بي ظنّ أنّني أكتب هذه الرسالة إليكِ، وأنّني سأوصلها إليكِ، وسوف يتاح لنا وقت معًا لكي نلتفت إلى الوراء. بجراح مُبلسمة، ونتمكّن من محو كلّ هذا من ذاكرتنا، فمن يدري؟

لكن في الواقع، أنا أكتبها لنفسي، لأقتنع بأنني فعلت كلّ مُمكن وكلّ وارد؛ أولاً بمحاولة إخراجك من سان لازار؛ ثمّ بالكفاح لإنقاذ حياتك، وأخيرًا بالحصول على فرصة وضع كتاب يروي الإجحاف الذي كنتِ ضحيّته لخطيئة أنكِ امرأة، للخطيئة العظمى أنك حرّة، وللخطيئة الجسيمة في التعرّي علنًا، وللخطيئة الخطرة في مخالطة رجال احتاجوا إلى صون سمعتهم بأيّ ثمن. وسيكون ذلك ممكنًا فقط إن أنت اختفيت إلى الأبد من فرنسا أو العالم. لا طائل الآن من وصف الرسائل والطلبات التي أرسلتها إلى بوشاردون، ومحاولاتي لقاء قنصل هولندا، ولائحة أخطاء لادو. عندما أنذر التحقيق بأنّه أوشك على التوقّف لانعدام الأدلّة، أعلم لادو الحاكم العسكري في پاريس أن في حوزته عدّة برقيّات ألمانيّة، تضم واحدا وعشرين مستندًا، ورّطتك حتّى العظم. وما كان فحواها؟ الحقيقة: أنّك لجأتِ إلى لادو عندما وصلتِ إلى پاريس، أنّك تلقّيتِ أجرًا مقابل عملك. أنّك طلبتِ المزيد من المال، أنّ عشاقًا كانوا لك في الأوساط العليا، لكنّ المستندات لم تحتو على أي شيء، لا شيء مطلقًا، يأتي على ذكر معلومات سريّة عن عملك أو تحرّكات عساكرنا.

لسوء الحظ أنّني لم أتمكّن من حضور كلّ محادثاتك مع بوشاردون، لأنّ «قانون الأمن القومي» الجزائي كان قد صدر، وحظّر على محامي

الدفاع حضور جلسات كثيرة، وهذا خلل قضائي بُرّر باسم «الأمن القومي».
لكن كان لي أصدقاء يتبوّأون مناصب رفيعة، وسمعوك تُسائلين النقيب لادو بحدّة، قائلةً إنّك آمنت بصدقه عندما عرض عليك المال لتكوني عميلة مزدوجة وجاسوسة لفرنسا. عندها، عَلِمَ الألمان بالضبط ما سيحلّ بك، وعلموا كذلك أنّ كل ما كان بإمكانهم فعله هو تعريضك أكثر للخطر. لكن خلافًا لما كان يحدث في بلادنا، كان الألمان قد نسوا أمر العميلة H21، وكانوا مركّزين في إيقاف هجوم التحالف بما يهمّ فعلاً: الرجال، وغاز الخردل، والبارود.

أنا على علم بسمعة السجن الذي سأزورك فيه للمرّة الأخيرة هذا الصباح. كان مشفى سابقًا للمصابين بداء الجذام، ثمّ حُوّل إلى مأوى، فإلى مكان للاعتقال والإعدام خلال الثورة الفرنسية. النظافة الصحيّة فيه معدومة عمليًا، ولا تهوئة في الزنزانات، والأمراض تنتشر عبر الهواء النتن الذي لا منفذ له. إنّه مكان تأهله العاهرات ومن أرادت عائلاتهن، عبر ما لها من صلات، انتزاعهنّ من حياتهن الاجتماعيّة. ويشكّل السجن أيضًا موضوع دراسة للأطباء المهتمّين بالسلوك البشري، رغم أنّه سبق لواحد منهم أن شجبهنّ:

«هؤلاء الشابّات موضع اهتمام عظيم للطبّ والأخلاقيين. إنهن مخلوقات صغيرة عزلاوات؛ شابات، بسبب خلفاء متنازعين، يُرسلن إلى هنا وهنّ صغيرات، في السابعة أو الثامنة من العمر، تحت غطاء «الإصلاح الأبوي»، ويصرفن طفولتهنّ مُحاطات بالفساد والعهر والمرض إلى أن يفقدن إرادة العيش أو العودة إلى منازلهن عندما يُطلق سراحهنّ لدى بلوغهنّ الثامنة عشرة أو العشرين من العمر».

إحدى شريكاتك في الزنزانة هي التي نُسمّيها اليوم «مناضلة لحقوق

المرأة». وما هو أسوأ «سلميّة»، و«انهزاميّة»، و«مخالفة للوطنيّة». إنّ التّهم الموجّهة إلى إيلين بريون، السجينة التي أقصدها، شبيهة بالتهم الموجّهة إليك: قبول المال من الألمان، التراسل مع الجنود ومصنّعي الذخائر، قيادة الاتّحادات، وإدارة العمّال، ونشر صحف سريّة تصرّح بمساواة حقوق المرأة لحقوق الرجل.

ستواجه إيلين على الأرجح مصيرك نفسه، مع أنّني أشكّ في ذلك، لأنّها مواطنة فرنسيّة، ولديها أصدقاء نافذون في الصحافة، ولم تستعمل السلاح الأكثر استنكارًا من كلّ الأخلاقيين، السلاح الذي يجعل منك في هذه المرحلة محظية لتسكني «جحيم دانتي»: سلاح الإغواء. مدام بريون ترتدي ثياب رجل وتفتخر بذلك. وفضلًا عن ذلك، فقد حكم عليها بالخيانة مجلس الحرب الأول، الذي يملك تاريخًا أكثر إنصافًا من المحكمة التي يرأسها بوشاردون.

غفوتُ من دون أن أعي ذلك. نظرتُ إلى الساعة من فوري ولـم يعد أمامي إلاّ ثلاث ساعات لذهابي إلى ذاك السجن الوضيع للقائنا الأخير. يستحيل سرد كلّ ما جرى، لأنّك وكّلتني رغمًا عن إرادتك. خلت أنّ البراءة كانت كافية لتحريرك من شباك النظام القضائي الذي طالما اعتززنا به. غير أنّه في زمن الحرب هذا قد أمسى إساءة لاستعمال العدالة.

توجّهتُ إلى النافذة. المدينة غافية، باستثناء مجموعاتٍ من الجنود قادمين من كلّ أرجاء فرنسا، يُنشدون وهم في طريقهم إلى محطة Gare d'Austerlitz، غير عارفين المصير الذي ينتظرهم. لا تدع الشائعات مجالا لأحد ليرتاح. قالوا صباح اليوم إنّهم قد دفعوا الألمان إلى التراجع ما بعد فردان. بعد الظهر، قالت بعض الصحف التهويلية إنّ الكتائب التركيَة تترجّل من سفنها في بلجيكا وتتقدّم نحو ستارسبورغ للهجوم الأخير. إنّنا ننتقل من البهجة العارمة إلى القنوط مرّات ومرّات في اليوم الواحد.

يستحيل سرد كلّ ما جرى من ١٣ فبراير ١٩١٧، عندما أوقفتِ، إلى اليوم الذي ستواجهين فيه فرقة الرماية. سأدع التاريخ يُنصفني، ويُنصف عملي. ذات يوم قد يُنصفك التاريخ أنتِ أيضًا، مع أنّني أشكّ في ذلك. لـم تكوني مجرد شخص اتُّهم بالجاسوسيّة فحسب، بل شخص تجرّأ على تحدّي أعراف معيّنة، وهو أمر يحول دون منحك المغفرة.

مع ذلك، تكفي صفحة واحدة لاختصار ما حدث: حاولوا تقفّي مصدر أموالك، وخُتم بعض منه على أنّه «سرّي»، لأنّهم استخلصوا أنّ كثيرًا من الرجال في مراكز عليا سيتورّطون. أنكر عشّاق سابقون، بلا استثناء، معرفتهم لك. حتّى الروسي الذي أُغرمت به وكنت على

استعداد للسفر إلى ڤيتيل من أجله، حتّى ولو انطوى سفرك على إثارة الشبهات وعلى المجازفة. ظهر وإحدى عينيه لا تزال مضمّدة، وقرأ نص شهادته بالفرنسيّة، وهي رسالة قرأها في المحكمة، وكان الغرض الأوحد منها إهانتك في العلن. ووُضعت المتاجر التي كنت تتسوّقين منها في دائرة الشُبهة. وحرصت صحف عدّة على نشر ديونك غير المسدّدة، مع أنّك كنت مصرّة طوال الوقت على أن «أصدقاءك» قد بدّلوا رأيهم بشأن الهدايا التي كانوا قد قدّموها إليكِ، وفجأة، اختفوا من دون تسديد أيّ شيء.

اضطرّ القضاة أن يستمعوا إلى أمور من بوشاردون منها: «في معركة الجنسين، كلّ الرجال، مهما تكن خبرتهم في فنون متنوّعة، تسهل هزيمتهم دومًا». وتدبّر أيضًا إسماعهم جواهر أخرى، مثل: «في الحرب، يُثير اتصال بسيط بمواطن من بلد عدو الشبهة والاستهجان». كتبتُ إلى القنصليّة الهولندية أطلب فيها أن تُرسل إلي بعض الملابس التي تُركت في لاهاي، لكي تمثلي أمام المحكمة بوقار. لكن ما يثير العجب أن صحف موطنك ما انفكّت تنشر المقالات، ومع ذلك فإن حكومة مملكة هولندا لم تبلّغ بالمحاكمة إلا في اليوم الأول على بدئها. في أي حال، ما كان ذلك لينفع، فقد خشوا أن يؤثّر ذلك في «حياديّة» البلاد.

عندما رأيتك تدخلين قاعة المحكمة في ٢٤ يوليو، كان شعرك عكشا، وثيابك باهتة، لكنّك كنت مرفوعة الهامة واثقة الخطى، كما لو أنّك تقبّلتِ مصيرك، مستنكرةً الذلّة العلنيّة التي أرادوا أن يعرّضوك لها. فهمت أنّ المعركة قد وصلت إلى ختامها، وكلّ ما أمكنك فعله هو الرحيل بكرامة. قبل أيام من ذلك، أمر المارشال پيتان بإعدام عددٍ لا يُحصى من الجنود المتّهمين بالخيانة، لأنّهم رفضوا القيام باعتداء ميداني يستهدف الأسلحة الألمانيّة الآليّة. رأى الفرنسيون في وقفتك أمام القضاة طريقة لتحدّي تلك المنايا و....

يكفي. لا جدوى من الاسترسال في أمر سوف يطاردني باقي حياتي، وأنا واثق بذلك. سوف أنتحب لرحيلك، سوف أستُرُ عاري لأنّني أخطأتُ في شأن نقطة مبهمة، أو لأنّني فكّرتُ أنّ العدالة في زمن الحرب وزمن السلم سيّان. سأحمل هذا الصليب، لكن عليّ أنّ أكفّ عن وضع الملح على الجرح، إذا أردتُ له أن يشفى.

مع ذلك، سيحمل متّهموك صلبانًا أثقل كثيرًا من صليبي. مع أنّهم اليوم يكشّرون عن أنيابهم ويتصافحون. سيأتي اليوم الذي سيسقط فيه القناع عن هذه المهزلة كلّها. حتّى ولو لم يحدث ذلك يومًا، فهم يعلمون أنّهم قد أدانوا شخصًا بريئًا، لأنّهم احتاجوا إلى إلهاء الناس، تماما كما كان على ثورتنا، قبل أن تولَد المساواة والأخوّة والحريّة، أن تنصب المقصلة في الساحة العامّة، لكي تؤمّن لهوًا مصبوغا بالدم لمن كانوا لا يزالون يفتقرون إلى الخبز. ربطوا مشكلة بأخرى، معتقدين أنّ ذلك سيتمخّض عن حلّ، لكن كلّ ما فعلوه كان صنع سلسلة ثقيلة من الحديد المقاوم، سلسلة سيكون عليهم جرّها، ما بقي لهم من العمر.

ثمّة أسطورة إغريقيّة لطالما أذهلتني، وأعتقد أنّها تلخّص قصّتك. تحكي عن أميرة حسناء افتُتن بها الجميع، وأثارت خوفهم لأنها بدت شديدة الاستقلاليّة. كان اسمها سايكه.

تضرّع والدها إلى الإله أپولو يائسًا من أن ينتهي الأمر بابنته عانسا. قرّر الإله حلّ المشكلة: عليها أن تذهب وحيدة، مدّثرة بثوب حداد، إلى قمّة جبل. وقبل السَّحر، سيأتي إليها ثعبان ويتزوّجها.

وهذا مثير للاهتمام لأنّك تضعين هذه الأفعى على رأسك في أشهر صورة لك.

لكن بالعودة إلى الأسطورة: أطاع الملك الإله أپولو، وإلى قمّة الجبل ذهبت ابنته؛ غفت وهي مذعورة تتجمّد من البرد، واثقة بأنها ستموت.

لكن، في اليوم التالي، أفاقت في قصر بديع وقد حُوّلت إلى ملكة. كان زوجها يدخل عليها كلّ ليلة؛ لكنه طلب إليها أن تُذعن لشرط واحد: أن تضع ثقتها الكاملة فيه وألاّ ترى وجهه يومًا.

بعد أن مكثا معًا أشهرًا عدّة، أُغرمت به، هو الذي حمل اسم إيروس. أحبّت محادثاتهما، وتلذّذت جدًّا بممارستهما الحب، وحظيت بمعاملة ملؤها الاحترام الذي استحقّته. في الوقت نفسه، خشيت أن تكون قد تزوّجت ثعبانًا فظيعًا.

ذات يوم، وإذ عجزت عن احتواء فضولها، انتظرت ريثما ينام زوجها وأزاحت الغطاء عنه بلطف. وعلى ضوء شمعة، رأت وجه رجل مفرط الجمال. غير أنّ النور أيقظه، وإذْ رأى إيروس أنّ زوجته قد عجزت عن تلبية طلبه الأوحد، اختفى.

كلّ مرّة أستعيد فيها هذه الأسطورة، أتساءل: هل سنتمكّن يومًا من رؤية الوجه الحقيقي للحب؟ وأفهم ما كان قصد الإغريقيين من ذلك: الحب فعل إيمان ويجب أن يظلّ وجهه مستورًا بالغموض على الدوام. يجب أن تُعاش كلّ لحظة بشعور ووجدان لأن محاولتنا تفكيك رموزها وفهمها، تخفي سحرها. نتبع دروبها المتعرّجة والمنيرة، ندع أنفسنا تصل إلى أعلى الأعالي أو أعمق القيعان، لكنّنا نثق باليد التي تقودنا. إذا لم نسمح لأنفسنا أن تتهيّب، سنستفيق دوما في قصر؛ إذا تهيّبنا الخطوات التي يستوجبها

الحبّ، ونريده أن يكشف لنا كلّ شيء، ستكون النتيجة أنّنا سنفقد كلّ شيء.

وأعتقد، أيا محبوبتي ماتا هاري، أنّ هذا كان خطأك. بعد سنوات في الجبل الجليدي، انتهى بك الأمر إلى فقدان الإيمان بالحب، وقرّرت أن تحوّليه خادمًا لكِ. الحب لا يُطيع أحدًا وسيخون كلّ من يحاول فك لغزه.

اليوم أنت سجينة الشعب الفرنسي. لكن ما إن تشرق الشمس، حتى تكوني حرّة. سيحتاج متّهموك إلى قوّة متزايدة لجرّ الأصفاد التي كبّلوا بها قدميك لتبرير موتك. لدى الإغريق كلمة محمّلة بالمعاني المتناقضة: ميتانويا. أحيانًا، هي تعني التوبة، والندم، والاعتراف بالخطايا، والوعد بعدم تكرار ما أخطأنا بفعله.

ومن معانيها الأخرى: تخطّي معارفنا، والوقوف وجهًا لوجه أمام المجهول، من دون استعادة أو ذكرى، من دون أن نفهم كيف سيكون اتّخاذ الخطوة التالية. نحن ملزمون بحياتنا، بماضينا، بالقوانين التي نعدُّها صحيحة أو خطأ، وفجأة يتغيّر كلّ شيء. نجوب الشوارع بلا مهابة، ونلقي التحية على جيراننا، لكن بعد لحظات، يكفّون عن كونهم جيراننا، يضعون أسيجة وأسلاكًا شائكة لكي نعجز عن رؤية الأمور كما كانت. وهذا ما سيحدث معي، ومع الألمان، ولاسيّما مع الرجال الذين قرّروا أنّ ترك امرأة بريئة تموت أسهل من الاعتراف بأخطائهم.

من المعيب أنّ ما يحدث اليوم، قد حدث أمس، وسيحدث مجدّدًا في الغد؛ وسيستمر على هذا النحو إلى أبد الدهر أو إلى أن يكتشف الإنسان أنّ ما يُحدّد ماهيّته ليس فكره فحسب، بل شعوره في الغالب. يتعب الجسد بسهولة، لكنّ الروح حرّة أبدًا، وستُعيننا يومًا ما على الخروج من هذه

الحلقة الجهنَميّة في تكرار كلّ جيل الأخطاء ذاتها. مع أنّ الأفكار لا تتغيّر، فإن ثـمّة ما يفوقها قوّة، وهذا ما يُسمَى الحب.

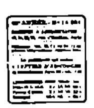
فعندما نُحبّ بحقّ، نعرف أنفسنا ونعرف الآخرين معرفة أفضل. ولا نعود في حاجة إلى الكلمات، أو الوثائق، أو المحاضر، أو التصاريح، أو الاتّهامات، أو الدفاعات. نحتاج فقط إلى ما يقوله سفر الجامعة:

«الجَوْرُ في مَوضعِ العَدلِ، والظُّلمُ في مَوضِعِ الحقّ. إنّ اللهَ سيحْكُمُ على الصِّدّيقِ وعلى الشّرّيرِ، لأنّ لكلّ عملٍ ولكلّ أمرٍ وَقتاً هناك».

فليكن كذلك. الله معك يا محبوبتي.

خاتمة

EDITION DE PARIS





La garantie d'une paix durable est de faire payer l'Allemagne

M. MALVY MIS HORS DE CAUSE

L'espionne Mata-Hari a été fusillée hier matin à Vincennes



À LA CHAMBRE

Après le récent débat sur la politique extérieure

LE GÉNÉRAL ALBY nommé major général de l'armée

LA FUTURE OFFENSIVE DIPLOMATIQUE...

SOFIA

L'espionne Mata-Hari a été fusillée hier matin à Vincennes

C'est hier matin qu'a été passée par les armes la danseuse Mata-Hari — ou plutôt l'espionne Marguerite-Gertrude Zelie, qui avait profité de l'accueil qu'on lui faisait dans notre pays pour le trahir pendant plusieurs années. Elle avait été condamnée à mort le 24 juillet dernier par le 3e conseil de guerre de Paris, pour espionnage et intelligences avec l'ennemi.

Avant la guerre, elle était déjà à la solde de l'Allemagne. Fréquentant, à Berlin, les



Mata-Hari Cl. Talbot.

milieux politiques, militaires et policiers, elle était immatriculée sus les registres de l'espionnage boche.

Dès le début des hostilités, elle s'aboucha directement, hors du territoire français, avec de hautes personnalités ennemies. Depuis le mois de mai 1916 elle reçut de l'Allemagne, à diverses reprises, des sommes importantes comme rémunération des indications dont elle se fit la pourvoyeuse.

C'est le 13 février 1917, au cours de son deuxième voyage en France, qu'elle fut arrêtée.

الجاسوسة ماتا هاري أُعدمت رميًا بالرصاص صباح أمس في «ڤانسن»

شهد صباح أمس إعدام الراقصة ماتا هاري، أو بالأحرى الجاسوسة مارغريت غيرترود زيليه، رميا بالرصاص، وهي التي استغلت استقبالنا لها في بلدنا لتخونه على مدى أعوام. وكان مجلس الحرب الثالث في باريس قد حكم عليها بالإعدام في ٢٤ يوليو الماضي، بتهمة الجاسوسيّة والأعمال الاستخبارية لصالح العدو.

قبل الحرب، موّلتها ألمانيا. وإذْ خالطت الأوساط السياسيّة والعسكريَة والأمنيّة في برلين، فقد سُجلت على قيود الجاسوسيّة الألمانية الرخيصة.

منذ بدء الاعتداءات، تواصلت مباشرةً، خارج الأراضي الفرنسيّة، مع شخصيّات عدوّة عالية المقام. ومنذ شهر مايو ١٩١٦، تلقّت من ألمانيا، وفي مرّات مختلفة، مبالغ كبيرة مقابل معلومات زوّدتها بها.

وكان ١٣ فبراير ١٩١٧ اليوم الذي سجّل تاريخ توقيفها في أثناء سفرتها الثانية إلى فرنسا.

يوم ١٩ أكتوبر، أي بعد أربعة أيام من إعدام ماتا هاري، اتُهم متّهمها الأساسي، النقيب جورج لادو بالتجسّس لصالح الألمان وسُجن. ومع أنّه ادّعى البراءة، فإن أجهزة مكافحة الجاسوسيّة الفرنسيّة قد استجوبته، علمًا أنّ الرقابة الحكوميّة، التي شُرّعت في فترة النزاع، حالت دون تسرّب هذه الواقعة إلى الصحف. زعم في دفاعه أنّ العدو كان قد دسّ المعلومات:

«ليس ذنبي أنّ عملي قد عرّضني لكلّ أنواع الدسائس، في حين كان الألمان يجمعون بيانات جوهريّة لغزو البلاد». أُطلق سراح لادو في النهاية في العام ١٩١٩، بعد سنة من انتهاء الحرب، غير أنّ سمعته كعميل مزدوج لازمته حتى مماته.

دُفن جثمان ماتا هاري في قبر ضحل لم يُحدّد مكانه يومًا. بالاستناد إلى عادات ذاك الزمن، قُطع رأسها، وسُلّم إلى ممثّلين حكوميين. احتُفظ به لسنوات في متحف التشريح في رو دي سان پير بپاريس إلى أن اختفى من المؤسّسة في يوم مجهول التاريخ. لم يُلاحظ المسؤولون عن المتحف أنّه فُقِدَ إلاّ عام ٢٠٠٠، مع الاعتقاد أنّ رأس ماتا هاري قد سُرق قبل ذاك بمدّة طويلة.

عام ١٩٤٧، أسرّ المدّعي أندريه مورنيه، الذي اتُّهم علنًا حينذاك بأنه أحد المحامين الذين أقاموا دعاوى لردّ «التطبيعات المتهوّرة» لليهود عام ١٩٤٠، والمسؤول إلى حدٍّ بعيد عن عقوبة إعدام المرأة التي زعم أنّها كانت «سالومي المعاصرة التي كان هدفها الأوحد تسليم رؤوس جنودنا إلى الألمان»، أسرّ إلى الصحافي والكاتب پول غيمار أنّ كلّ الدعاوى كانت مُستندة إلى استنتاجات، واستنباطات، وافتراضات، وخلص إلى القول:

«فيما بيننا، ما امتلكناه من أدلّة كان هزيلاً جدًّا لدرجة أنّه ما كان يصلُح لعقاب قطّة».



ملاحظات وشكر من المؤلّف

مع أنّ وقائع هذا الكتاب حقيقيّة، كان عليّ ابتكار بعض الحوارات، ودمج مشاهد معيّنة، وتغيير ترتيب بعض الأحداث، واستبعاد أيّ أمر خلتُ أنّه لم يكن على صلة بالكتاب.

للراغبين في معرفة المزيد عن قصّة ماتا هاري، أنصحهم بالكتاب الممتاز لمؤلّفه پات شيپمان ***Femme Fatale: Love, Lies, and the Unknown Life of Mata Hari*** (Harper Collins, 2007)؛ و ***Mata Hari, Sa vertitable histoire*** (Plon: Paris, 2003) لفيليپ كولا وهو ابن حفيد پيار بوشاردون، إحدى شخصيّات هذا الكتاب، والذي أتيحت له إمكانية الوصول إلى مواد جديدة تماما وغير منشورة؛ و "Le dossier Mata Hari" لفريديريك غيلتون المنشور في ***Revue historique des armées***, 247 (2007)؛ و ***Mournful Fate of Mata Hari, the spy who wasn't guilty***" لراسل وارن هاوي في مؤسسة Smithsonian، المرجع ٤٢٢٤٥٥٣ - وسواها من المقالات الأخرى التي استخدمتها للبحث.

عام ١٩٩٩ أصبح ملفّ ماتا هاري الذي وضعه جهاز الاستخبارات البريطانيّة، متاحًا للعموم. وبات بإمكانهم الاطّلاع عليه كاملا على موقعي الإلكتروني الخاص، أو شراؤه مباشرة في المملكة المتحدة من National Archives، المرجع 1-KV-2.

أودّ أن أشكر وكيلي المحامي شيلبي دو پاسكييه وشركاءه على التوضيح المهم الذي أمدّوني به بشأن المحاكمة؛ وأشكر أنّا ڤون پلانتا،

ناشرتي السويسريَة - الألمانيَة، على مراجعتها التاريخيَة الحازمة، مع أن علينا الأخذ في الحسبان نزعة الشخصيَة الأساسيّة إلى توهّم الوقائع؛ وأشكر أنّي كوغيوم، وهي صديقة وكاتبة يونانيَة، على مساعدتها في الحوارات وحبك القصّة.

هذا الكتاب مُهدىً إلى ج.

هذا الكتاب

وصلت إلى باريس بجيوبٍ فارغة. وسرعان ما أصبحت حديث المجتمع باعتبارها المرأة الأكثر أناقةً في المدينة.

راقصةٌ أذهلت الجماهير وأدخلت الفرح إلى قلوبهم، وباتت محطّ أنظارهم، وبيتَ أسرارهم. وثق بها أثرياء تلك الحقبة والنافذون فيها.

وفيما كان جنون الارتياب يفتك بالبلاد التي دارت رحى الحرب فيها، توجّهت أصابع الشك نحو ماتا هاري جرّاء نمط الحياة المريب الذي كانت تعيشه.

وبحلول العام ١٩١٧، أُلقيَ القبض عليها في غرفتها بفندقٍ في الشانزليزيه، واتُّهمت بالتجسّس.

ماتا هاري في رسالتها الأخيرة روت قصة الجاسوسة وهي قصةٌ ستظلّ في الذاكرة لامرأةٍ تجرّأت على كسر التقاليد والأعراف ودفعت الثمن.

ISBN 978-9953-88-947-4
9 789953 889474

الجناح، شارع زاهية سلمان،
مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: ٨٣٧٥ - ١١ بيروت - لبنان
تلفون: ٠٨-٨٣٠٦٠٨ ٩٦١١+ فاكس: ٨٣٠٦٠٩ ٩٦١١+

tradebooks@all-prints.com
publishing@all-prints.com
www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر